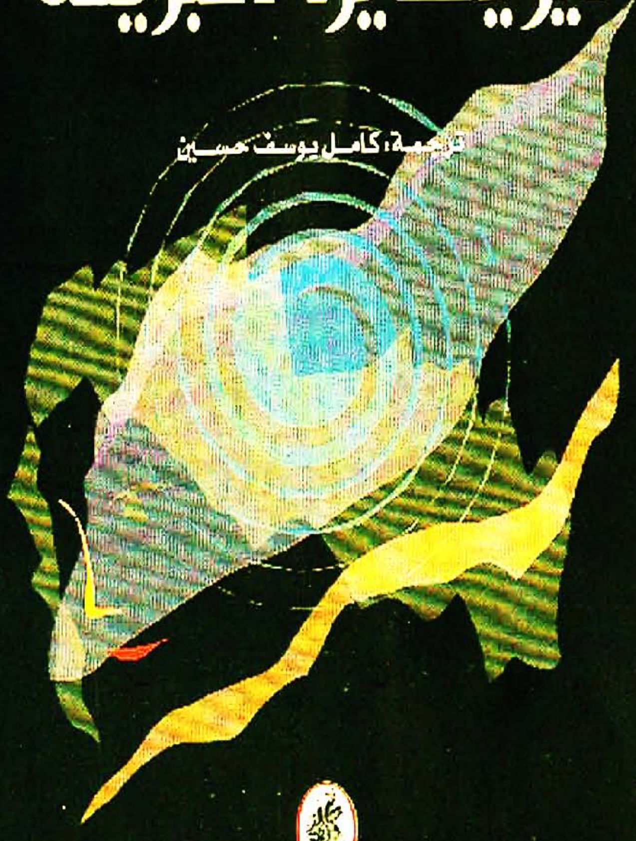
GABRIEL GARCIA MARQUEZ

غابرييل غارسيا ماركيز

ايرينديرا البريئة

ترجمة: كامل يوسف حسين



غابرييل غارسيا ماركيز

ايرينديرا البريئة

ترجمة: كامل يوسف حسين

المؤسسة العربية للدراسات والنشر

التوزيع في الأردن

Email:

ISBN 9953-36-075-8

الفهرس

مقدمة المترجم

هذا كتاب للتأمل ، للتساؤل ، من ثم لفتح الأبواب التي تأتي منها الريح ، وشأن أعمال جارسيا ماركيز جميعا فإن علامات الاستفهام التي يطرحها لا تدعى لنفسها القدرة على علاج كيان مريض لكنا تتقدم باعتبارها مدخلا للتشكيك في حجية منطق يجعل من المرض طريقة حياة ومن الاستغلال فاتحة كتاب .

ولنبدأ الرحلة من أولها ..

لم يعد القاص الكولومبي جابرييل جارسيا ماركيز اسما يلفه الغموض في عالمنا العربي كما كان قبل سنوات ، وربما لم يقدر لكاتب أجنبي أن تنقل أعماله بهذه الغزارة إلى العربية وأن تحقق هذا القدر من الاتساع في أفق الانتشار في عالمنا العربي مثلما حدث لماركيز ، فقد طالع القارئ العربي له على التوالي أعماله الموسومة «مائة عام من العزلة» ، «خريف البطريرك» ، «قصة موت معلن» ، «العقيد لا يجد من يكاتبه» ، «عاصفة الأوراق» ، «قصة بحار غريق» ، «في ساعة نحس» ، «الرحلة الأخيرة للسفينة الشبح» وقد حظي كاتب هذه الكلمات بسعادة تقديم العملين الأخيرين من خلال ترجمتهما إلى العربية .

والحق أن هذا الانتشار في العربية إنما هو استمرار لانتشار مماثل في العديد من اللغات الأخرى على امتداد العالم ، هكذا فإن منح جائزة نوبل في الآداب للقاص الكولومبي لعام 1983 لم تكن إلا إقرارا بواقع يجمع الكثيرون

عليه وإعلانا من جانب لجنة منح الجوائز بأنها تستطيع – ولو لمرة – أن تكون منصفة في تخصيص جوائزها .

وفي هذا الإطار الأشمل تأتي هذه المجموعة لتطرح خصوصيتها ولتقدم هويتها المتميزة ، فقد عرف القارئ العربي النسيج الروائي عند ماركيز في مرحلته المتقدمة ، لكن هذا النسيج لم يأت من فراغ ولم يكن وليد لحظات عبقرية متوهجة منبتة بذاتها عن الزمان والمكان ، وإنما كان استمرارا و تطويرا لجهد دائب دام سنوات طويلة ترجع إلى ما بعد الحرب العالمية الثانية ، والمجموعة الماثلة بين أيدينا هي بمثابة «المقولات» بالنسبة للنسيج العقلي الخالص عند ماركيز .

هناك وجهتا نظر تطرحان عادة فيما يتعلق بإنتاج ماركيز :

الأولى : تقول أن ماركيز يحاول في كل عمل جديد يقدمه أن يقدم عملا آخر متميزا وقائما بذاته يشكل انتقالا كيفيا مقارنة بالعمل السابق على وجه التحديد .

والثانية : تذهب إلى أن ماركيز إنما يقيم بمجمل أعماله صرح بناء واحد ، وأنه في الواقع يؤلف كتابا واحدا ، ولكن في مجلدات عديدة .

وقد كان ماركيز نفسه هو الذي حرص على أن يشدد على القول بأن كل كاتب ، أيا كانت إسهاماته الفكرية ، إنما يؤلف كتابا واحدا وأن مؤلفاته هو – أي ماركيز – ليست إلا كتاب العزلة .

المجموعة الماثلة بين أيدينا هي قراءة مبكرة في كتاب العزلة ، وهي بهذا المفهوم تصب في التيار الثاني في تفسير أعمال ماركيز ، ومن هنا أهميتها حقا ، إنها رحيل فيما أسماه القاص الشهير سلمان رشدي باسم «أرض جارسيا» استكشاف حقيقي ووعر لجبل الجليد الذي تمثله الرواية اللاتينية مجسدة في كتابات أبرع من أسهموا في تطوير «الواقعية السحرية» .

ها هنا تمتد أمامنا في صورة بكر المادة التي ستتعقد ، فيما بعد ، لتقدم النسيج شديد الخصوصية ، لـ«مائة عام من العزلة» تتردد موضوعات وأسماء وأماكن ستلج ذاكرتنا فيما بعد راعدة كفيضان من عناق الرعد والبرق ، وهي إذ تفض نفسها أمامنا ، إذ تمنحنا بدنها طواعية تراوغنا متحدية إيانا لندخل مغاليق دهاليز ما هو طبيعي ومنطقي من ثم عقلي وما هو مفارق لهذا كله وفائق له أو متدن عنه .

هنا يفضح جارسيا ماركيز عرى ما هو طبيعي وعادي ومألوف ليبين أنه لم يكتسب عاديته إلا من استكانتنا له ومن انصياعنا للقهر النابع منه .

إن دخول القطار إحدى القرى اللاتينية ، هذا المشهد العادي والمألوف ، سوف يقابل في «مائة عام من العزلة» باندفاع امرأة صارخة وكأن العالم قد بلغ نهايته ، لكن قيام المهندسين الأمريكيين بتقسيم البحر عقب تقطيعه إلى قطع مرقمة ونقله إلى غبش كاليفورنيا في «خريف البطريرك» لن يجد من يبدي نحوه أي شعور بالدهشة فأين الطبيعي وأين المفارق للطبيعة حقا؟

وفي عالم تختلط فيه الأشياء ويعجز المرء عن تبين كفه في وهج الشمس وينسى اسمه في خمار الذاكرة تمتد الرحلة الوحشية عبر هذه المجموعة . لكننا حين ننتهي منها لا نكون أبدا على نحو ما بدأناها .

إن علامات الاستفهام تكتسب معنى جديدا ، وتنفتح أبواب جديدة للريح .

الشارقة في 1982/12/28

القصة الحزينة التي لا تصدق لإيرينديرا البريئة وجدتها الضارية

كانت إيريديرا تحمم جدتها حين بدأت رياح محنتها تهب ، سرت رعدة في الدار الفسيحة المشيدة من الأسمنت الأشهب ، الضائعة في عزلة الصحراء ، فبلغت قواعده مع الهجمة الأولى . لكن إيريديرا وجدتها كانتا قد اعتادتا مخاطر الطبيعة الضارية هناك ، فلم تبديا اكتراثا لوقر الرياح في الحمام المزخرف بسلاسل من الطواويس وفسيفساء الحمامات الرومانية .

بدت الجدة العارية الضخمة في حوض الاستحمام المرمري وكأنها حوت أبيض بديع المنظر . كانت الحفيدة قد بلغت لتوها الرابعة عشرة من عمرها . بدت واهنة ، هشة العظام ، وأكثر خنوعا مما يتناسب وعمرها . راحت تحمم جدتها في اقتصاد توشّيه صرامة قدسية على وجه التقريب بماء غليت فيه أعشاب مطهرة وأوراق أشجار عطرية ، تشبثت هذه الأخيرة بالظهر الريان والشعر المنسدل المعدني اللون ، والكتفين القويين ، اللذين وشما بلا رحمة على نحو يخجل معه البحارة من عجزهم عن احتمال قسوة الوشم .

قالت الجدة :

- تراءى لي في الحلم ليلة أمس أنى أتوقع وصول رسالة .

تساءلت إيريندا التي لا تتحدث قط إلا حين يستحيل تجنب الحديث :

- أي يوم عشته في الحلم؟

- الخميس .

قالت إيريندیرا :

– إذن فقد كانت رسالة تحمل أخبارا سيئة ، لكنها لن تصل أبدا .

حينما فرغت من حمام جدتها مضت بها إلى مخدعها . كانت الجدة من البدانة بحيث لم يكن بمقدورها السير إلا متوكئة على كتف حفيدتها ، أو على عصا تحاكي صولجان أحد الأساقفة ، ولكن حتى خلال أكثر جهودها تعذرا كانت القوة اللصيقة بجلال عتيق تبدو واضحة . في المخدع الذي أثث بذوق يجمع بين الإسراف والجنون شأن الدار كلها ، اقتضى الأمر ساعتين كي تزين إيريندیرا جدتها ، فقط مشطت شعرها ، خصلة فأخرى بعد أن عطرته وحلت جدائله ، ألبستها رداء تحليه زهور استوائية ونثرت الذرور على وجهها ، مست بأحمر شفاه فاقع الحمرة فمها ، وبالحمرة خديها ، وبعبير المسك جفونها ، وبطلاء عرق اللؤلؤ أظافرها ، وحينما كستها كأنها عروس تفوق الحجم الطبيعي ، مضت بها إلى حديقة صناعية ذات زهور خانقة ، تحاكي زهور ردائها . أجلستها في مقعد ضخم له قاعدة وتفرع عرش ملكي ، وتركتها تستمع لأسطوانات غائمة الصوت ، تنبعث نغماتها من حاكٍ له بوق ويشبه الصور .

فيما كانت الجدة تطفو عبر مستنقعات الماضي ، عكفت إيريندیرا على كنس الدار التي كانت معتمة ، متنافرة ، تحفل بأثاث غريب وتماثيل لقياصرة من نسج الخيال وثريات تتدلى كالأقراط وملائكة من الرخام وبيان مذهب والعديد من الساعات ذات أحجام وأشكال لا تخطر على بال . ثمة صهريج في الفناء لتخزين المياه حملته كواهل الهنود منذ سنوات بعيدة من منطقة ينابيع نائية . وقد قيدت إلى حلقة في جدار الصهريج نعامة متهالكة ، هي المخلوق الوحيد ذو الريش الذي يمكن أن يحتمل عذاب ذل الطقس اللعين . كانت الدار نائية عن كل شيء في قلب الصحراء ، تلي مستوطنة ذات شوارع بائسة متقدة تنتحر فيها الماعز من جراء الوحدة والقنوط ، حين تهب رياح التعاسة .

أقيم صرح هذا الملاذ العصي على الفهم على يد زوج الجدة ، وهو مهرب أسطوري يدعى أماديس ، أنجبت له ابنا ، كان بدوره يدعى أماديس ، وهو والد إيريندیرا . ولم يقدر لأحد أن يحيط علما لا بأصول تلك الأسرة ولا بدوافع سلوكها . وتقول أشهر الروايات المحكية بلغة الهنود إن أماديس الأب قد أنقذ زوجته الجميلة من دار للبغاء بجزر الأنتيل ، حيث أودى بحياة رجل في مشاجرة بالمدى ، ونقلها فغرسها إلى الأبد في حصانة الصحراء ، حينما مات أماديس الأب والابن ، أحدهما من رعشات حمى السوداء والآخر مرقش البدن بالطلقات في قتال نشب حول امرأة ، دفنت الجدة جثتيهما في الفناء ، طردت الخادمات الأربع عشرة الحافيات ، وواصلت اجترار أحلام عظمتها في ظلال الدار المختلة ، وذلك بفضل تضحيات حفيدتها غير الشرعية التي ربتها منذ ميلادها .

اقتضى الأمر إنفاق ست ساعات من إيريندیرا لمجرد ضبط وملء الساعات . وفي اليوم الذي بدأت فيه تعاستها ، لم تضطر للقيام بذلك لأن الساعات كانت قد أديرت مفاتيح ملئها بما يكفي لعلمها حتى صباح اليوم التالي ، غير أنها أرغمت من ناحية أخرى على أن تحمم جدتها وتزينها وأن تنظف الأرض وتطهو طعام الغداء وتلمع البلور الثمين . في حوالي السابعة ، وبينما كانت تغير الماء في وعاء النعامة وتروي الأعشاب الصحراوية النامية حول القبرين المتماثلين حيث يرقد أماديس الأب والابن ، كان عليها أن تصارع غضب الرياح الذي أصبح عصيّ الاحتمال ، لكنها لم تشعر أدنى شعور بأنها رياح محنتها . في الثانية عشرة ، كانت تجفف آخر أقداح الشمبانيا حينما اشتمت رائحة الحساء ، واضطرت لاجتراح معجزة العدو إلى المطبخ دون أن تخلف في أعقابها كارثة تحطم البلور البندقي .

أفلحت في رفع الإناء من فوق الموقد ، فيما كان الحساء قد بدأ يفور منسكبا ، ثم وضعت يخنة كانت قد أعدتها بالفعل ، وانتهزت الفرصة لتجلس على مقعد عال في المطبخ لتنال قسطا من الراحة . أغمضت عينيها ،

وفتحتهما من جديد وقد علا تعبير لا يعرف التعب ملامحها ، وشرعت في صب الحساء في السلطانية . كانت عاكفة على العمل في غمار غفوتها .

كانت الجدة قد جلست على رأس منضدة للمآدب يعلوها طاقم شمعدانات فضية ، تستوعب اثنى عشر شخصا . هزت جرسها الصغير ، فوصلت إيريندىرا على الفور تقريبا بالسلطانية التي ينبعث البخار منها . وفيما كانت تغرف الحساء ، لاحظت جدتها مظهر السائر في نومه الذي يعلو ملامحها ، فمررت يدها أمام عينيها ، كما لو كانت تجفف لوح زجاج خفي . لم تر الفتاة اليد ، فتابعتها الجدة بنظرة ، وحينما التفتت لتعود إلى المطبخ صاحت بها :

إيريندىرا!

أسقطت الفتاة السلطانية على السجادة إثر إيقاظها على حين غرة ، قالت لها الجدة برقة تحمل نغمة التأكيد :

- لا تراعي يا طفلتي ، لقد نالك النعاس خلال سيرك مرة أخرى . قالت إيريندىرا متعذرة :

- لقد اعتاد جسمي هذا

التقطت السلطانية ، وما زال غمام النعاس يلفها ، حاولت تنظيف البقعة التي أصابت السجادة .

- منعتها جدتها من ذلك قائلة :

- دعيها ، بمقدورك غسلها هذا الأصيل .

هكذا تعين على إيريندىرا إلى جوار مهام الأصيل المعتادة أن تغسل سجادة غرفة الطعام ، فانتهزت فرصة وجودها إلى جوار المغسل للقيام بغسيل يوم الاثنين كذلك ، بينما تحلقت الرياح الدار باحثة عن منفذ للولوج منه . كان لديها الكثير مما يتعين عليها القيام به حتى أن الليل أقبل دون أن تدرك ذلك ،

وحينما أعادت سجادة غرفة الطعام إلى موضعها كان الوقت قد حان لتتلف إلى الفراش .

أمضت الجدة الأصيل بكامله عاكفة على البيان تدندن بأغنيات صدر شبابها بصوت متكلف عالي الطبقة ، وقد علت لطخ من العنبر والدموع جفونها ، لكنها حينما رقدت في فراشها مرتدية منامتها القطنية الرقيقة عاودتها مرارة ذكرياتها الأثيرة .

قالت لإيريندىرا :

- انتهزي فرصة الغد لغسل سجادة غرفة المعيشة كذلك ، فهي لم تر الشمس منذ أيام الضجيج . ردت الفتاة :

- نعم ، جدتي!

التقطت مروحة من الريش ، وشرعت في جلب الهواء إلى العجوز العنيدة ، التي راحت تتلو على مسمعها قائمة الأوامر الليلية فيما هي تغوص راحلة في رحاب النعاس .

- عليك بكيّ الملابس كلها قبل الرقاد لتنامي بضمير صاف !

- نعم جدتي !

- افحصي خزائن الثياب بعناية ، لأن العثة تزداد جوعا في الليالي التي تهب فيها الرياح!

- نعم ، جدتي!

- حينما تخرجين خذي الزهور إلى الفناء لتهويها!

- نعم ، جدتي!

- وأطعمي النعامة!

كانت قد أغفت ، لكنها مضت تصدر الأوامر ، فقد كانت هي التي أورثت

حفيدتها القدرة على التدفق حياة وهي غافية ، غادرت أيريندريا الغرفة دون أن تحدث جلبة ، وعكفت على أداء المهام الليلية الأخيرة وهي لا تزال ترد على أوامر الجدة الغافية .

– روِّ القبور بعض الماء!

– نعم ، جدتي!

قالت الجدة :

– وإذا ما وصل أماديس الأب والابن فأبلغيهما بألا يلجا الدار لأن عصبة بورفيريو جالان تنتظرهما لتقتلهما!

كفت عن الرد عليها لأنها كانت تعلم أن جدتها تتخبط في غمار هذيانها ، لكنها حرصت على أن تلبي الأوامر كافة . حينما فرغت من تفقد مصاريع النوافذ ، وأطفأت آخر الأنوار ، تناولت شمعدانا من غرفة المائدة وأنارت سبيلها إلى مخدعها ، فيما كانت فترات السكون خلال هبوب الرياح تمتلئ بالتنفس الهادئ لجدتها الغارقة في نومها .

كانت غرفتها مزودة بأسباب الترف كذلك ، لكنها لا تضاهي في ذلك غرفة جدتها ، وقد تراكمت فيها أكوام عالية من الدمى البالية والحيوانات الزنبركية التي بقيت لها من طفولتها التي لم يبعد بها العهد . ناءت تحت وقر مهام النهار الضارية فلم تعد لديها القدرة على نزع ثيابها ، وضعت الشمعدان على منضدة صغيرة ، وتهاوت على الفراش . بعد هنيهة ولجت رياح محنتها المخدع مثل زمرة من كلاب الصيد ، فأسقطت الشمعة على الستارة .

عند الفجر ، وحينما هجعت الرياح أخيرا ، شرعت قطرات مطر قليلة ، غليظة ، متناثرة في التساقط ، فأطفأت آخر الجمرات ، وصلبت رماد الدار الذي راح يمج الدخان . حاول الناس في القرية ، ومعظمهم من الهنود ، إنقاذ بقايا الكارثة ، جثة النعامة المتضخمة ، إطار البيان المذهب ، بدن أحد

التماثيل . راحت الجدة تتأمل مربع فرحها في كآبة لا سبيل إلى سبرغورها . كانت إيريندريا ، جالسة بين قبري أماديس الابن والأب ، وقد كفت عن البكاء حينما اقتنعت الجدة بأن أشياء قليلة للغاية هي وحدها التي لم يمسها الدمار وسط الحطام ، رمقت حفيدتها بإشفاق صادق .

تنهدت قائلة :

– يا طفلتي المسكينة ، لن يكون عمرك طويلا بما يفكي لتدفعي لي التعويض عن هذه الكارثة .

وقد بدأت إيريندريا في دفع التعويض في ذلك اليوم بعينه تحت وقع انهمار المطر ، حينما حملت إلى بدال القرية ، وهو رجل هضيم ترمل قبل الأوان ، اشتهر على امتداد الصحراء بالمقابل الوافر الذي يدفعه لنيل عذرية الفتيات . فيما كانت الجدة تنتظر دون أن يردعها رادع ، راح الأرمل يتفحص إيريندريا بتجرد العالم ، تحرى قوة فخذيها ، حجم نهديها ، قطر عجيزتها . لم ينبس ببنت شفة إلا بعد أن قدر ما تساويه .

عندئذ قال :

– إنها لا تزال فجة تماما ، وحلمتاها تشبهان حلمات كلبة .

ثم رفع بها إلى ميزان ليثبت صحة ما توصل إليه بالأرقام . كان وزنها تسعين رطلاً .

قال :

– إنها لا تساوي أكثر من مائة بيزو .

روعت الجدة ،

أوشك صوتها أن يبلغ مرحلة الصياح وهي تقول :

– مائة بيزو لقاء فتاة لم يمسها بشرا! لا ، يا سيدي ، هذا يفضح افتقارك لاحترام الفضيلة .

قال الأرمل :

- سأجعلها مائة وخمسين .

قالت الجدة :

-كبدتني هذه الفتاة أضرارا تبلغ ما يزيد على مليون بيزو ، وبهذا المعدل ستحتاج إلى قرنين من الزمان لتدفع لي التعويض .

قال الأرمل :

- من حسن طالعلك أن السمة الوحيدة الطيبة التي تتمتع بها هي صباها .

شرعت العاصفة تلطم الدار ، حفل السقف بالعديد من الثقوب حتى أن المطر المنهمر داخل الدار كان يعادل ما ينهمر خارجها . أحست الجدة بنفسها وحيدة في عالم يحفل بالكوارث .

قالت :

- اجعل المبلغ ثلاثمائة!

- مائتان وخمسون .

أخيرا اتفقا على مائتين وعشرين بيزو نقدا وبعض المؤن . عندئذ أومأت الجدة إلى إيريندرا لتمضي مع الأرمل ، فقادها من يدها إلى الغرفة الخلفية ، كما لو كان يمضي بها إلى المدرسة .

قالت الجدة :

- سأنتظرك هنا .

قالت إيريندرا :

- نعم جدتي!

كانت الغرفة الخلفية بمثابة سقيفة لها أربعة أعمدة من الطوب وسقف من

سعف النخيل المتحلل وجدار من الطوب اللبن ، يعلو ثلاثة أقدام ، تتخلله قلاقل من الخارج ، فتنفذ إلى البناء . وضعت فوق الحائط الطوبي أوعية فخارية تضم الصبار وغيره من نباتات المناطق القاحلة ، تدلت أرجوحة نوم كالحة اللون بين عمودين خافقة كأنها الشراع الحر لمركب وحيد الشراع ، فوق هدير العاصفة واصطفاق الماء كان بمقدور المرء أن يسمع نباح الحيوانات النائية والصرخات المنبعثة من حطام سفينة .

حين ولجت إيريندرا والأرمل السقيفة ، اضطرا إلى الوقوف متماسكين حتى لا يسقطهما دفق المطر الذي خلفهما مبللين ، ما كان من الممكن سماع صوتيهما ، لكن حركاتهما غدت واضحة في غمار زئير العاصفة . لدى المحاولة الأولى من جانب الأرمل صرخت إيريندرا بشيء لا يبين ، وحاولت الابتعاد . رد عليها الأرمل دون أن يند عنه صوت ، فلوى رسغها ، وجرها إلى أرجوحة النوم . دفعته بخمش وجهه ، وصرخت لرحاب الصمت من جديد ، لكنه رد بصفعة صارمة رفعتها عن الأرض وأسلمتها للهواء لحظة بشعرها الذي يحاكى شعر ميدوزا ، الطويل ، المنساب في الفراغ . أمسك في إحكام بخصرها قبل أن تمس الأرض ثانية ، ألقاها في الأرجوحة بدفعة وحشية ، وكبلها بركبتيه ، عندئذ استكانت للفزع ، غاب عنها وعيها ، ظلت كما لو كانت قد فتنتها أشعة القمر المنعكسة عن سمكة تطفو في الهواء العاصف فيما كان الأرمل ينزع عنها ثيابها ممزقاً إياها بحركة جذب منتظمة ، كأنما يقتلع العشب ، مبعثرا إياها بجذبات كونية هائلة ، ترفرف كأعلام خفاقة وتمضي مع الريح .

عندما لم يعد في القرية رجل آخر يمكنه أن يدفع أي شيء لقاء مطارحة إيريندرا الغرام ، وضعتها جدتها في شاحنة لتمضي بها إلى حيث يقيم المهربون ، قامتا بالرحلة على ظهر الشاحنة في العراء وسط أجولة الأرز ودلاء دهن الخنزير وما أبقت عليه نيران الحريق : اللوحة الرأسية لفراش على غرار مرقد نائب الملك ، تمثال لملاك محارب ، العرش المحترق وقطع أخرى مما لا نفع

فيه ، في صندوق ذي صليبين طليا بضربات فرشاة عريضة حملتا عظام أماديس الاب والابن .

اتقت الجدة الشمس بمظلة مهترئة ، وقد تعذر عليها التنفس جراء العذاب الذي تعانيه من العرق والغبار ، لكنها حتى في ذلك الوضع التعس ظلت رابطة الجأش . خلف كومة المعلبات وأجولة الأرز دفعت إيريندира تكاليف الرحلة وكراء النقل لحمال العربة بمضاجعته مقابل عشرين بيزو للمضاجعة الواحدة . كان النظام الذي تلجأ إليه للدفاع في البداية هو ذاته الذي استخدمته ضد هجوم الأرمل ، لكن أسلوب الحمال بالعربة كان مختلفا ، وئيدا ، ومتعقلا ، فانتهى به الأمر إلى ترويضها بالرقة واللين ، هكذا فحينما بلغوا البلدة الأولى عقب رحلة قاتلة كانت إيريندира وحمال العربة يسترخيان من مضاجعة طيبة وراء حاجز البضائع . صاح السائق بالجدة :

– ها هنا يبدأ العالم .

رمقت الجدة عاجزة عن التصديق الشوارع البائسة الغارقة في العزلة لبلدة أكبر قليلا من تلك التي غادرتها وإن كانت تحاكيها في الحزن .

قالت :

– لا يبدو الأمر كذلك لي .

قال السائق :

– إنها تضم إرسالية .

قالت الجدة :

– لا. تعنيني الأعمال الخيرية ، وإنما يهمني المهربون .

دست إيريندира أصبعها في جوال أرز مصغية إلى الحوار من وراء حمل البضائع . فجأة عثرت على خيط ، فجذبته ، وأخرجت قلادة من اللآلئ

الحقيقية . حدقت فيها مذهولة وقد أمسكتها بين أصابعها كحية ميتة ، فيما رد السائق على الجدة :

– لا تراودنك أحلام اليقظة ، سيدتي ، فليس هناك مهربون .

قالت الجدة :

– بالطبع لا ، إنني أصدق ما تقول .

قال السائق مازحا :

– حاولي أن تعثري على أحدهم وستكتشفين الأمر بنفسك ، الجميع يتحدث عنهم لكن أحدا لم ير أيا منهم .

أدرك حمال العربة أن إيريندира استلت القلادة فأسرع إلى انتزاعها منها ، وأعادها إلى شوال الأرز . عندئذ نادتها الجدة ، التي قررت المكوث في البلدة على الرغم من فقرها ، لتساعدها في الهبوط من الشاحنة فودعت الحمال بقبلة سريعة وإن كانت عفوية وصادقة .

انتظرت الجدة ، جالسة على عرشها في منتصف الشارع حتى انتهوا من إنزال حاجياتها ، كان آخرها الصندوق الذي يضم رفات أماديس الأب والابن .

قال السائق لها ضاحكا :

–لهذا الشيء ثقل جثة .

قالت الجدة :

– هناك جثتان ، فعاملهما بالإجلال الذي تستحقانه!

ضحك السائق ثانية :

– أراهن أنهما تمثالان من المرمر .

وضع صندوق الرفات على الأرض بلا اكتراث وسط الأثاث الذي سفعته حرارة الحريق ، ومد كفه مفتوحة إلى الجدة .

قال :

– خمسون بيزو!

– لقد دفع تابعك بالفعل على الجانب الأيمن .

تطلع السائق إلى مساعده في دهشة ، فأومأ الأخير بالإيجاب ، فعاد السائق إلى مقدمة الشاحنة ، حيث تركب امرأة متشحة بالسواد وبين ذراعيها طفل يبكي جراء الحر . حدث الحمال الجدة في ثقة بالغة بنفسه :

– ستمضى إيريندرا معي ، إن كان هذا يوافقك ، ومقصدي شريف .

تدخلت الفتاة وقد أخذتها الدهشة :

– إنني لم أقل شيئا .

تفحصته الجدة مليا ، صعودا وهبوطا ، لا لتجعله يستشعر الضآلة وإنما في محاولة لقياس مدى صلابته .

قالت له :

– لا اعتراض لي إن دفعت ما خسرته جراء إهمالها ، إنه ثمانمائة واثنان وسبعون ألفا وثلاثمائة وخمسون بيزو ، يخصم منها أربعمائة وعشرون بيزو دفعتها لي ، مما يجعل الإجمالي ثمانمائة وواحدا وسبعين ألفا وثمانمائة وخمسة وتسعين بيزو .

بدأت الشاحنة في التحرك .

قال الحمال جادا :

– صدقيني كنت سأعطيك كومة النقود تلك لو أنني أمتلكها ، فالفتاة تساويه . داخل السرور الجدة إزاء قرار الفتى .

ردت بلهجة تشي بالتعاطف :

– طيب ، إذن ، عد حينما تكون لديك النقود يا ولدي ، أما الآن فمن

الخير أن تذهب لأننا لو أعدنا الحسابات ثانية فسينتهي الأمر بأن أكون مدينة لك بعشرة بيزو .

وثب الحمال إلى مؤخرة الشاحنة ، فانطلقت به بعيدا . لوح من هناك مودعا إيريندرا ، لكنها كانت لا تزال غارقة في رحاب الدهشة حتى إنها لم ترد تحيته الأخيرة .

في البقعة الخالية التي خلفتهما الشاحنة فيها ، ارتجلتا مأوى تقطنانه من ألواح القصدير وبقايا السجاجيد الشرقية ، وضعتا حشيتين على الأرض ، وأغفتا في نوم هانئ ، كأنهما في دار رحبة إلى أن فتحت الشمس ثقوبا في السقف ، ولسعت وجهيهما .

على العكس مما كان يحدث عادة عكفت الجدة في ذلك الصباح على إصلاح شأن إيريندرا ، فزينت وجهها على غرار ما تزين وجوه الموتى قبل الدفن ، وهو ما كان شائعا في صدر شبابها ، ومستها بطلاء أظفار صناعي ، وكللتها بتاج من نسيج قطني رقيق بدا على رأسها كالفراشة .

أقرت بالحقيقة فقالت :

– تبدين فظيعة المنظر ، لكن الأمر أفضل على هذا النحو ، فالرجال بلهاء تماما فيما يتعلق بالأمور النسائية .

قبل أنترياهما بفترة طويلة تبينتا كلتاهما صوت بغلين يمضيان على الأرض الصحراوية القاسية . رقدت إيريندرا بأمر من جدتها على حشية على النحو الذي قد تفعله ممثلة هاوية في اللحظة التي يوشك فيها الستار أن يرتفع عنها . خرجت الجدة من المأوى مستندة إلى صولجان الأسقف الذي تؤثره ، وجلست على العرش في انتظار مرور البغلين .

كان ساعي البريد مقبلا ، لم يتجاوز عامه العشرين ، لكن عمله جعله يتقدم في العمر ، كان يرتدي زيا رسميا كاكيا ، ويلف ساقيه بأربطة طويلة ،

ويعتمر قبعة من لب شجرة ، ويعلق مسدسا في حزام ذخيرته ، كان يمتطي بغلا جيدا ، ويقود الآخر بمقوده وقد تكومت على هذا الأخير أكياس البريد القماشية وبدا طاعنا في السن .

حيا الجدة فيما كان يمر بها ، وواصل المسير ، لكنها أومأت له أن ينظر داخل المأوى ، توقف الرجل ، فشاهد إيرينديرا مضجعة على الحشية في زينتها الجنائزية وقد ارتدت رداء أرجواني الحواف .

تساءلت الجدة :

– أيروق الأمر لك ؟

لم يكن ساعي البريد قد أدرك جلية الأمر حتى ذلك الحين . قال مبتسما :

– لا يبدو الأمر سيئا لامرئ كان يلتزم العفة .

قالت الجدة :

– خمسون بيزو .

قال :

– إنك تطلبين مبلغا كبيرا ، بوسعي أن أقتات بهذا المبلغ شهرا .

– لا تكن شحيحا ، فالبريد يدفع لك أكثر مما لو كنت قسا .

قال الرجل :

– إنني ساعي البريد المحلي ، أما ساعي بريد المنطقة فيرحل في شاحنة صغيرة .

قالت الجدة :

– الحب على أي حال في أهمية الطعام .

– لكنه لا يغذيك .

أدركت الجدة أن الرجل الذي يحيا مما ينتظره الآخرون لديه أكثر من الكفاية من الوقت للمساومة .

سألته :

– كم معك؟

ترجل ساعي البريد ، أخرج بعض الأوراق المالية البالية ، وأراها للجدة ، فانتزعتها جميعا بيد سريعة كما لو كانت كرة .

قالت :

– سأخفض المقابل من أجلك شريطة أن تنشر النبأ في كل مكان .

قال :

– على امتداد الطريق حتى الجانب الآخر من العالم ، هذا هو ما خلقت من أجله .

عندئذ مزعت إيرينديرا التي كانت عاجزة عن أن تطرف بعينها أهدابها الصناعية ، وانتقلت إلى جانب الحشية لتفسح مجالا لرفيق الصدفة ، وما أن ولج المأوى حتى أغلقت الجدة المدخل بجذبة نشطة للستار المنزلق .

كانت تلك صفقة فعالة ، فقد أقبل الرجال الذين خلبت لبهم كلمات ساعي البريد من مسافات بعيدة ليتعرفوا طزاجة إيرينديرا ، وخلفهم أقبلت موائد القمار وأكشاك الطعام ، ووراء هذا كله أقبل مصور فوتوغرافي على دراجة . نصب آلة تصوير على الجانب الآخر من المأوى ذات ردن في لون الحداد وحامل ثلاثي وخلفية للتصوير تضم بحيرة ، وما لا حصر له من البجع .

بدت الجدة ، وهي تجلب الهواء بمروحة اقتعدت العرش ، غريبة عن السوق الذي تملكه ، كان كل ما يعنيها هو الحفاظ على النظام في صف الزبائن الذين

ينتظرون دورهم في المضاجعة ، وتفحص مقدار ما دفعوه من نقود على وجه الدقة ليلجوا المأوى إلى إيريندريا . كانت في البداية بالغة التدقيق إلى حد أنها رفضت عميلا طيبا لأن نقوده كانت تنقصها خمسة بيزو ، ولكن مع مضي الشهور لملمت أطراف الدرس الذي يعلمه الواقع ، وانتهى بها الأمر إلى ترك من يستكملون الأجر بالأيقونات أو التذكارات العائلية أو خواتم الزواج أو أي شيء آخر تعجمه بأسنانها فتتيقن أنه ذهب أصلي حتى وإن لم يكن يلمع- يلجون المأوى .

بعد إقامة طويلة في تلك البلدة تراكم لدى الجدة ما يكفي من النقود لشراء حمار ، فمضت تضرب في الصحراء بحثا عن أماكن أكثر رخاء تتيح لها استرداد الدين . سافرت على محفة يحملها الحمار تقيها من الشمس الموغلة في الجمود المظلة المهترئة التي تمسكها إيريندريا فوق رأسها . خلفهما سار أربعة من الهنود يحملون بقايا المخيم : حشيات النوم ، العرش الذي جرى إصلاحه ، الملاك المرمري ، الصندوق الذي يضم رفات أماديس الأب والابن ، وتبع المصور القافلة على دراجته دون أن يلحق بها قط ، كأنما هو ذاهب لشهود مهرجان آخر .

كانت ستة شهور قد انقضت منذ شب الحريق حينما تمكنت الجدة من تصور العمل على نحو كامل .

قالت لإيريندريا :

- إذا سارت الأمور على هذا النحو فستردين لي الدين في غضون ثماني سنوات وسبعة شهور وأحد عشر يوما .

عكفت على حساباتها مغمضة العينين متلمسة بأصابعها البذور التي تستخرجها من حافظة قيطانية تحفظ فيها النقود كذلك ، وصححت ما أخطأت فيه قائلة :

- كل ذلك بالطبع ، دون حساب أجر وإعاشة الهنود وغيرها من النثريات .

لم تلم إيريندريا التي كانت تساير الحمار في خطاه وقد انحنت تحت وطأة الحر والغبار- جدتها لما سردت من أرقام ، لكنها اضطرت إلى كبح جماح دموعها .

قالت :

- ثمة مسحوق زجاجي يفري عظامي .

- حاولي أن تنامي!

- نعم ، جدتي!

أغمضت عينيها ، استافت ملء رئتيها من الهواء الحارق ، وأوصلت السير غافية .

لاحت شاحنة صغيرة محملة بالأقفاص ، فأفرغت الماعز الغارق في غبرة الأفق ، كان هديل الطيور يحاكي رشاش ما ء بارد أعد للإفاقة من خدر يوم الأحد في سان مجيل ديل ديزيرتو . كان هناك عند رأس العربة مزارع هولندي بدين ، مزق التجوال وجهه ، له شارب سنجابي ورثه عن أحد أجداده القدامى أما ولده أوليسيس ، الذي كان يركب إلى جواره في المقعد الآخر ، فقد كان مراهقا ذهبي البشرة ، بعينين في لون البحر تفيضان بالوحدة ، وله سمات ملاك استرق من جنته . لاحظ الهولندي خيمة وقف أمامها كل جنود الحامية المحلية ينتظرون دورهم . كانوا يجلسون على الأرض عاكفين على الشراب من الزجاجة ذاتها التي راحوا يمررونها من فم إلى آخر وقد وضعوا فروع اللوز فوق رؤوسهم كأنهم يموهون أنفسه استعدادا لخوض معركة . تساءل الهولندي بلغته :

- ما الذي يمكن أن يبيعوه هناك بحق الشيطان؟

رد ولده بلهجة طبيعية تماما :

- امرأة ، اسمها إيريندريا

- كيف عرفت؟

رد أوليسيس :

- الجميع في الصحراء يعلمون .

توقف الهولندي عند الفندق الصغير بالبلدة ، وترجل ، مكث أوليسيس في الشاحنة ، وبأصابع خفيفة الحركة فتح حقيبة صغيرة تركها أبوه على المقعد ، التقط رزمة من الأوراق المالية ، دس العديد منها في جيبه ، وترك كل شيء على نحو ما كان عليه تماما . في تلك الليلة ، فيما كان أبوه يغط في نومه انسل من نافذة الفندق ومضى ليقف في الصف أمام خيمة إيرينديرا .

كان القصف في أوجه ، راح الجندون السكارى يراقصون بعضهم بعضاً حتى لا يبددوا الموسيقى المجانية عبثا ، ومضى المصور يلتقط صورا ليلية باستخدام أوراق الماغنسيوم . وفيما الجدة تطل على مسيرة العمل راحت تحصى الأوراق المالية في حجرها مقسمة إياها إلى أكوام متعادلة ومرتبة إياها في سلة . كان هناك اثنا عشر جنديا فحسب في ذلك الوقت لكن الصف الليلي تضخم بالزبائن المدنيين ، وكان أوليسيس آخرهم .

حل الدور على جندي بائس المظهر ، لم تسد الجدة الطريق في وجهه فحسب ، وإنما حرصت على ألا تمس نقوده .

قالت له :

- لا ، يا ولدي لن تستطيع الدخول ولو لقاء ذهب العالم كله ، إنك تجلب الحظ السيء .

أصابت الحيرة الجندي الذي لم يكن من هذه الأرجاء .

- ماذا تعنين ؟

قالت الجدة :

- إنك تجلب الظلال الشريرة ، وما على المرء إلا أن ينظر إلى وجهك ليدرك هذا .

لوحت بيدها صارفة إياه ، ولكن دون أن تمسه ، وأفسحت السبيل للجندي التالي :

قالت بسماحة :

- ادخُل ، أيهُا الوسيم ، لكن لا تستغرقْ وقتا طويلا ، فبلادك بحاجة إليك .

دخل الجندي الخيمة ، لكنه خرج توا لأن إيريندريا أرادت محادثة جدتها . علقت الجدة سلة النقود على ذراعها ، وولجت الخيمة التي لم تكن فسيحة وإن كانت مرتبة ونظيفة . في المؤخرة ، وعلى أحد أسرة الجيش كانت إيريندريا عاجزة عن وقف الرعشة التي ألمت بجسدها ، بدت في حالة بائسة وقد اتسخ بدنها كله بعرق الجنود .

راحت تنشج :

- جدتي ، إني أعاين الهلاك .

تحسست الجدة جبينها ، وعندما أدركت أنها لا تعاني من الحمى ، حاولت أن تبعث في نفسها العزاء .

قالت :

- لم يعد هناك إلا عشرة جنود .

شرعت إيرنيديرا تبكي مطلقة صرخات دابة خائفة ، فأدركت الجدة عندئذ أنها قد تجاوزت حدود ما يبعث الفزع في الأبدان ، مسدت رأسها ، أعانتها على الركون إلى الهدوء .

قالت لها :

- المشكلة أنك ضعيفة ، هيا ، لا تبكي ، تحممي بماء فيه نبات المريمية لتسري الدماء في عروقك من جديد .

حينما أفرخ روع إيرينديرا ، غادرت الجدة الخيمة ، أعادت للجندي المنتظر نقوده ، وقالت له :

- انتهى الأمر اليوم ، عد في الغد وسأمنحك المكان الأول في الصف .

ثم صرخت بالمصطفين :

- انتهى الأمر اليوم ، يا فتية ، موعدنا التاسعة من صباح الغد .

انفض جمع الجنود والمدنيين مصدرا صيحات الاحتجاج ، فواجهتهم الجدة بمزاج رائق ، وإن لوحت بالصولجان المدمر في توتر .

صاحت :

- أنتم طغمة من الأجلاف لا تراعى شعورا ، م تظنون الفتاة قد خلقت؟ من حديد؟ أود أن أراكم مكانها . أيها المنحرفون ، أيها المتبطلون القذرون !

رد عليها الرجال بإهانات أشد ضراوة ، لكن الأمر انتهى بسيطرتها على التمرد ووقوفها مع مساعديها في وجههم إلى أن مضوا بعيدا بمناضد الأطعمة الخفيفة وفككوا أكشاك المقامرة . كانت على وشك العودة إلى الخيمة حينما شاهدت أوليسيس دون أن ينال منه الليل ، وحيدا في الفراغ حيث كان الرجال يصطفون من قبل لفته هالة مجافية للواقع وبدا كأنما تمكن رؤيته في الظلال بسبب تألق حسنه .

سألته الجدة ،

- أنت ، ما الذي حدث لجناحيك؟

رد أوليسيس بصورة طبيعية :

- كان جدي هو الذي يتمتع بأجنحة ، لكن أحدا لم يصدق ذلك .

تفحصته الجدة من جديد بافتتان ، قالت :

- طيب ، إنني أصدق ذلك ، أعد جناحيك إلى مكانهما وعد غدا!

ولجت الخيمة ، وتركت أوليسيس محترقا حيث وقف .

شعرت إيرينديرا بتحسن بعد الحمام ، أرادت قميصا تحتيا قصيرا مزركش الأطراف ، وعكفت على تجفيف شعرها قبل الرقاد ، لكنها كانت لا تزال تبذل جهدا حتى لا تنهل دموعها . كانت جدتها قد أغفت .

لاحت رأس أوليسيس مطلة وئيدة خلف فراش إيرينديرا . رأت الفتاة العينين القلقتين الشفافتين ، لكنها قبل أن تنبس ببنت شفة حكت رأسها بالمنشفة لتثبت لنفسها أن ذلك لم يكن وهما ، حينما طرف أوليسيس بجفنية لأول مرة سألته بصوت بالغت في خفضه :

- من أنت؟

أطل أوليسيس حتى بدا كتفاه ، قال :

- اسمي أوليسيس .

أراها رزمة النقود التي اختلستها ، وأضاف :

- لدي نقود .

أرخت إيرينديرا يدها على الفراش ، دنت بوجهها من محيا أوليسيس ومضت تحاوره ، كما لوكانا يلهوان في روضة أطفال .

قالت :

- كان مفروضا أن تقف في الصف .

- انتظرت طوال الليل .

- طيب ، عليك الآن ، بالانتظار حتى الغد ، فإني أحس كما لو أن أحدا كان يلطم كليتي .

في هذه اللحظة شرعت الجدة تغمغم في رقادها

قالت :

- عشرون عاما انقضت منذ همى المطر لآخر مرة . كانت العاصفة رهيبة حتى أن المطر امتزج بماء البحر ، وصباح اليوم التالي امتلأت الدار بالسمك ، والقواقع . ورأى جدك أماديس ، لينعم بالسلام في مرقده ، أشعة شيطان البحر تطفو عبر الهواء .

اختفى أوليسيس خلف الفراش من جديد ، فتلاعبت على شفتي إيريnديرا ابتسامة لاهية .

قالت له :

- هون عليك ، فهي تبدو كالمجنونة في رقادها دوما ، لكن الزلزال نفسه لا يمكنه إيقاظها .

عاود أوليسيس الظهور ، فتطلعت إليه إيريnديرا بابتسامة عابثة يخالجها الانفعال هونا ، ونزعت الملاءة الملطخة عن الحشية .

قالت :

- هلم ساعدني في تغيير الملاءة .

عندئذ أقبل أوليسيس من خلف الفراش ، وتناول أحد أطراف الملاءة ، ولما كانت الملاءة أكبر كثيرا من الحشية فقد اضطر إلى طيها عدة مرات . مع كل طية كان أوليسيس يقترب من إيريnديرا .

قالت فجأة :

- كنت سأجن شوقا لرؤياك ، يقول الجميع إنك جميلة وهم على حق .

قالت إيريnديرا :

- لكني سألقى حتفي .

قال :

- تقول أمي إن من يموتون في الصحراء لا يمضون إلى السماء ، وإنما إلى البحر .

نحت إيريnديرا الملاءة المتسخة جانبا ، وكست الحشية بملاءة أخرى نظيفة أتقن كيها .

قالت :

- لم يسبق لي أن رأيت البحر قط .

قال :

- إنه يشبه الصحراء وإن كان ملؤه الماء .

قالت :

- إذن فليس بمقدورك السير فيه .

قال :

- كانت أمي تعرف رجلا بوسعه السير في البحر ، لكن ذلك كان منذ عهد بعيد .

خلب الحديث لبها ، لكنها كانت ترغب في النوم .

قالت :

- إذا جئت في وقت مبكر في الغد فيمكنك أن تكون أول من يقف في الصف .

قال :

- لسوف أرحل مع أبي عند الفجر .

- ألن تعود مارا بهذا الطريق؟

قال :

- من يدري؟ لقد تصادف أن مررنا لأننا ضللنا الطريق إلى الحدود .

تطلعت إيريnديرا غارقة في التفكير إلى جدتها الغافية .

حسمت أمرها فقالت :

ليكن ، أعطني النقود!

أعطاها أوليسيس إياها ، فرقدت على الفراش ، لكنه ظل مرتعدا في موضعه ، ففي اللحظة الحاسمة تراخى عزمه ، أمسكت بيده تحثه على أن يعجل ، وعندئذ فحسب لاحظت محنته . كانت قد ألفت ذلك الخوف .

تساءلت :

- أهي المرة الأولى؟

لم يحر جوابا ، لكنه ابتسم في أسى ، فانقلبت إيريnديرا مخلوقا آخر .

حدثته قائلة :

- تنفس ببطء! هكذا الأمر دوما في المرة الأولى ، وفيما بعد لن تلحظ الأمر قط .

أرقدته إلى جوارها ، وفيما كانت تنزع عنه ملابسه ، راحت تهدهده بحنان أم .

- ما اسمك؟

- أوليسيس

قالت :

- هذا من أسماء هنود الجر ينجو .

- لا ، إنه اسم بحار .

عرت صدره ، منحته بضع قبلات ، كأنما تهبها ليتيم ، تشممته .

قالت :

- تبدو كما لو كان بدنك خلق كله من ذهب ، لكن رائحة الزهور تفوح منك .

قال :

- لابد أن هذا يرجع إلى ثمار البرتقال .

غدا أكثر هدوءا ، فعلت ابتسامة تشي بالتواطؤ محياه .

أضاف قائلا :

- إننا نحمل الكثير من الطيور معنا لنضلل الناس ، لكن ما نقوم به هو تهريب ملء العربة من ثمار البرتقال عبر الحدود .

قالت إيريnديرا :

- ليس البرتقال مما يهرب .

قال :

- لكن ثمارنا مما يهرب ، فكل منها يعادل خمسين ألف بيزو .

ضحكت إيريnديرا لأول مرة منذ وقت بعيد .

قالت :

- ما أحبه فيك هو الطريقة الجادة التي تتحدث بها عن الهراء .

مرة أخرى عادت إليها عفويتها ورغبتها في الثرثرة كأنما لم تغير براءة أوليسيس حالتها المزاجية وإنما شخصيتها كذلك .

كانت الجدة ما تبرح دانية من محنتها تواصل الحديث في نومها .

قالت الجدة :

- في هاتيك الأيام ، مع مطلع مارس حملوك إلى الدار ، كنت تبدو مثل سحلية ملفوفة بالقطن . كان أماديس ، أبوك ، في ميعة شبابه وقمة أناقته جم السعادة في ذلك الأصيل حتى أنه أرسل في طلب عشرين عربة مثقلة بالزهور ، ووصل ناثرا إياها على امتداد الشارع حتى تألقت القرية بأسرها بلون الأزهار الذهبي كالبحر .

ظلت على تصاخبها مصدرة صيحات صاكة ومنطلقة بانفعال عنيد ساعات طويلة ، لكن أوليسيس ما كان ليستطيع سماعها لأن إيريندريا غرقت معه في الحب بانهماك وصدق عظيمين حتى أنها ضاجعته مجددا لقاء نصف الأجر فيما جدتها غارقة في الهذيان ، وواصلت مضاجعته دون مقابل حتى الفجر .

انتصب جمع من المبشرين واقفين كتفا إلى كتف وسط الصحراء ، عصفت رياح ضارية كرياح المحنة بأرديتهم الخشنة النسيج ولحاهم الشعثاء فغدوا قاب قوسين أو أدنى من العجز عن الثبات وفي وقفتهم .خلفهم كانت الإرسالية كومة أحجار شيدت على الطراز الاستعماري ذات برج صغير للجرس فوق جدران جهمة طليت باللون الأبيض .

أشار أصغر المبشرين ، والذي كان مسؤولا عن الجمع ، نحو صدع طبيعي في الأرض الصلصالية المتألقة .

صاح :

- لن تجتازوا هذا الخط .

توقف الحمالون الهنود الأربعة الذين يحملون الجدة في محفة من الألواح لدى سماعهم الصيحة . احتفظت الجدة بتعاليها المفعم كبرياء رغم أنها لم تستشعر الراحة بجلوسها على ألواح المحفة ، ورغم أن الغبار والعرق الصحراويين أثقلا عليها . أما إيريندريا فكانت تسعى على قدميها ، وخلف المحفة أقبل صف يتألف من ثمانية هنود يحملون المتاع وفي النهاية ، أقبل المصور على دراجته .

قالت الجدة :

- ليست الصحراء ملكا لأحد .

قال المبشر :

- إنها ملك لله ، وأنت بعملك الدنس تنتهكين نواميسه القدسية .

عندئذ أدركت الجدة لهجة وبيان شبه الجزيرة الذي استخدمه المبشر فتجنبت الصدام وجها لوجه حتى تحطم رأسها على صخرة عناده ، وتمالكت زمام أعصابها .

- لست أفهم أحجياتك ، يا بني!

أشار المبشر نحو إيريندريا :

- تلك الطفلة لم تتجاوز سن الرشد .

- لكنها حفيدتي .

رد المبشر :

- هذا يجعل الأمر أكثر سوءا ، اتركيها لرعايتنا راضية ، والا لجأنا لطرق أخرى!

لم تكن الجدة قد توقعت أن يمضي إلى هذا الحد .

استسلمت في خوف قائلة :

- ليكن ، ما دام الأمر على هذا النحو ، لكني سآمر إن عاجلا أو آجلا ، لسوف ترى .

عقب المواجهة مع المبشرين بثلاثة أيام ، كانت الجدة وإيريندريا غارقتين في النوم بقرية قرب الإرسالية ، حين تسللت إلى الخيمة مجموعة من الأجساد الصامتة المختلسة الخطى زاحفة مثلما دورية مشاة . كانوا ستة من الرهبان الهنود المستجدين يضجون قوة وشبابا تبدو ثيابهم الخشنة المنسوجة من القنب

كأنها تلتمع وهجا في سنا القمر . دون أن يحدثوا جلبة لفوا إيرينديرا في نسيج كلة ، ورفعوها دون أن يوقظوها ، وحملوها منطلقين بها بعيدا كأنها سمكة كبيرة هشة صادتها شبكة قمرية .

لم تدع الجدة وسيلة إلا جربتها في غمار محاولتها إنقاذ حفيدتها من حماية المبشرين ، وعندما أخفقت الأساليب جميعا من أكثرها مباشرة إلى أشدها مخاتلة ، عندئذ فقط لجأت للسلطة المدنية المتمثلة في رجل عسكري ، ألفته في فناء داره ، عاري الصدر يطلق النار بأحد مسدسات الجيش على سحابة قاتمة منعزلة في السماء المتوهجة كالحريق . كان يحاول أن يثقب السحابة ليجلب المطر ، وكانت طلقاته غاضبة وبلا جدوى ، لكنه استغرق الوقت الضروري للإصغاء للجدة .

أوضح لها جلية الأمر حين فرغ من سماعها بقوله :

– ليس بوسعي القيام بأي شيء ، فللقس بحكم الاتفاقية البابوية الحق في الاحتفاظ بالفتاة إلى أن تبلغ سن الرشد أو إلى أن تتزوج .

تساءلت الجدة :

– إذن فلم ينصبونك عمدة هنا؟

رد العمدة :

– للاستسقاء .

ثم حينما رأى أن السحابة قد تحركت بعيدا عن مرمى المسدس قطع الاضطلاع بواجباته الرسمية وكرس اهتمامه كاملا للجدة .

قال لها :

– إن ما تحتاجين إليه هو شخص له وزنه يشهد لصالحك ، شخص بمقدوره أن يقسم مؤكدا مكانتك الأخلاقية وسلوكك الطيب مدرجا ذلك في خطاب ممهور بتوقيعه . أتعرفين السناتور أونيسيمو سانشيز؟

ردت الجدة بغضب وقور جالسة تحت الشمس الضارية على مقعد عال شديد الضآلة بالنسب لعجيزتها اللحيمة .

– لست إلا امرأة فقيرة وحيدة في عراء الصحراء .

رمقها العمدة بإشفاق وقد انحرفت عينه اليمنى تحت وطأة الحر .

قال :

– إذن فلا تضيعي وقتك يا سيدتي ، لسوف تتعفنين في الجحيم .

لكنها ، بالطبع لم تتعفن ، إنما ضربت خيمتها بإزاء الإرسالية ، وجلست تمعن التفكير ، شأن محارب منفرد يحاصر مدينة محصنة ، أما المصور الجوال الذي كان يعرفها حق المعرفة فقد وضع أجهزته على حامل دراجته وتأهب لمغادرة المكان وحيدا حينما رآها والشمس في كبد السماء تحدق بعينين ثابتتين في الإرسالية .

قالت :

– لنر من سيناله الإعياء أولاً ، أنا أم هم .

قال المصور :

– لقد كانوا هنا منذ ثلاثة قرون ، وما زال بمقدورهم أخذها ، إني راحل .

عندئذ فحسب لاحظت الجدة الدراجة المحملة بالأجهزة .

– إلى أين تمضي؟

– إلى حيث ألقت ، الدنيا واسعة؟

قالها المصور ، ورحل :

تنهدت الجدة قائلة :

– ليست واسعة بقدر ما تحسب ، أيها الجاهل!

لكنها لم تحرك رأسها رغم غضبها حتى لا تغيب الإرسالية عن نظرها . لم تلتفت طوال أيام عديدة حافلة بحر يوشك أن يحاكي معدنا منصهرا وليال تضج بعاصف الرياح ، إذ كانت طوال الوقت غارقة في التفكير ، وما من أحد غادر الإرسالية ، أقام الهنود سقيفة من سعف النخيل إلى جوار الخيمة ، ونصبوا أراجيح نومهم هناك . لكن الجدة كانت تقف مراقبة الإرسالية حتى وقت جد متأخر من الليل ، ثم تجلس على عرشها فيداهمها النعاس متقطعا وهي تمضغ الحبوب النيئة التي تضمها حافظتها بالتراخي العنيد لثور جاثم .

ذات ليلة ، مرت قافلة من الشاحنات المغطاة الوئيدة السير قريبا منها ، وكانت الأضواء الوحيدة التي تبدو منها باقات من المصابيح المستديرة الملونة خلعت عليها الحجم الشبحي لمذابح قرابين متنقلة . تعرفتها الجدة في الحال لأنها كانت تشبه تمام الشبة شاحنات أماديس الأب والابن . أبطأت الشاحنة الأخيرة في القافلة مسيرتها . توقفت ، وترجل رجل من مقدمتها ليثبت شيئا في مؤخرتها ،بدا كما لو كان تذكارات من أماديس الأب والابن ، يعتمر قبعة مثنية الحواف إلى أعلى ، وينتعل حذاء طويلا ، وقد تقاطع حزامان للطلقات على صدره ، وتسلح ببندقية جيش ومسدسين . نادته الجدة تحت وطأة إغراء لا سبيل إلى مقاومته .

سألته :

- ألا تعرفني ؟

غمرها الرجل دونما إشفاق بفيض من ضياء مشعله ، راح للحظة يتفرس في وجهها الذي أضنته اليقظة وعينيها اللتين أذبلهما الإعياء ، وشعرها المهوش الذي كان رغم سنها حالتها البائسة والضوء الفج المترامي على محياها يمكن أن يقول بأنها كانت أجمل نساء الدنيا . حينما تفحصها بما يكفي للتقين من أنه لم يسبق له أن رآها قط أطفأ المشعل .

- كل ما أعرفه على وجه اليقين هو أنك ليست عذراء العون الأزلى .

قالت الجدة بصوت بالغ العذوبة :

- على العكس تماماً فإني أنا السيدة .

وضع الرجل يده على مسدسه بدافع غريزي .

- أي سيدة؟

- السيدة أماديس الكبرى .

قال متوتراً :

- إذن فأنت لا تنتمين إلى هذا العالم ، ما الذي تريدين؟

- أريدك أن تساعدني في إنقاذ حفيدتي . حفيدة أماديس الكبير ، ابنة ولدنا أماديس ، أسيرة في هذه الإرسالية .

غالب الرجل خوفه .

- لقد أخطأت الباب الذي يتعين عليك طرقه ، لئن كنت تحسبين بأننا سنزج بأنفسنا في شؤون الرب فلست من تدعين أنك هي ، وما قدر لك قط أن تعرفي شيئاً عن آل أماديس وليس لديك أدنى فهم للتهريب .

في صبيحة ذلك اليوم ، نالت الجدة قسطاً من النوم أقل مما اعتادت ، رقدت يقظى تتدبر الأمور وقد التفت بغطاء من الصوف فيما أصابت البكرة ذاكرتها بالتشويش وجالدت الهذيان الذي قمعت انسيابه لينطلق رغم يقظتها ، فاضطرت إلى أن تضغط بيدها على قلبها حتى لا تخنقها ذكرى دار على شاطئ البحر تحفل بزهور حمراء عرفت فيها السعادة يوماً . مكثت على هذا النحو إلى أن قرع جرس الإرسالية ودلفت الأضواء الأولى إلى النوافذ وتشبعت الصحراء بعرف خبز صلاة الصبح الساخن ، عندئذ فحسب نفضت عنها إعياءها وقد استدرجها توهم أن إيريندرا نهضت من نومها وراحت تبحث عن وسيلة للهرب والعودة إلى رحابها .

غير أن إيرينديرا لم يفتها نعاس ليلة واحدة منذ حملت إلى الإرسالية . كانوا قد قصوا شعرها بمقص لتشذيب الأشجار ، حتى أصبحت رأسها تحاكي الأجمة ، ألبسوها رداء راهب خشن ، أعطوها دلواً للتنظيف وفرشاة لتنظيف الدرج في كل مرة يرقاه أحد أو يهبطه . كان عملاً شاقاً ؛ فما كانت خطى المبشرين وحملة الرسائل من الرهبان الجدد تنقطع عن الصعود والهبوط ، لكن إيرينديرا كانت تشعر كما لو أن كل يوم كان يوماً من أيام الآحاد بالمقارنة بمركب التجديف الرهيب الذي كان فراشها . فضلاً عن هذا فإنها لم تكن الوحيدة التي تشعر بالإنهاك مع مقدم الليل لأن تلك الإرسالية كانت مكرسة لا لمكافحة الشيطان وإنما لقهر الصحراء . رأت إيرينديرا الكهنة الجدد يجالدون في سحب الأبقار في الأسطبل ليتم حلبها ، وشاهدتهم يقفزون على ألواح خشبية أياماً بطولها لصنع الجبن ، وهم يساعدون عنزاً فاجأها المخاض الوعر . رأتهم يتصببون عرقاً شأن حمالي السفن لفحتهم الشمس يحملون الماء من صهريج لري حديقة شاسعة غرسها رهبان جدد آخرون مستخدمين الفؤوس لتنمو الخضر في صخور الصحراء النارية . رأت الجحيم الأرضي يتقد في الأفران لإنضاج الخبز وتسخين المكاوي لكي الثياب . شاهدت راهبة تطارد خنزيراً في أرجاء الفناء . وتنزلق بمسكة الدابة الهاربة من أذنيها ، وتتدحرج في بركة موحلة دون أن يفلت الخنزير منها إلى أن عاونها راهبان مستجدان يضعان على صدرهما ميدعتين جلديتين في السيطرة عليه ، واحتز أحدهما عنقه بسكين حادة فغطى الدم والوحل ثلاثتهم . رأت في عزلة جناح المرضى راهبات مصدورات في أكفانهن الليلية ينتظرن آخر أوامر الرب ، وهن يطرزن ملاءات الزفاف في الشرفات ، فيما الرجال يلقون بمواعظهم في الصحراء .كانت إيرينديرا تحيا في ظلالها ، وتكتشف صوراً أخرى للحسن والرعب لم يسبق لها قط أن تصورتها في عالم مضجعها الضيق . لكن أشد الرهبان الجدد خشونة وأكثرهم قدرة على الإقناع لم يفلح في انتزاع كلمة منها منذ إحضارها إلى الإرسالية . ذات صباح ، وفيما كانت تعد سائل التنظيف في دلوها ، سمعت موسيقى وترية تحاكي نوراً أكثر شفافية حتى من نور الصحراء ، أسرتها هذه المعجزة ، فأطلت خلسة إلى قاعة هائلة الاتساع ، خاوية عارية الجدران ، ضخمة النوافذ ، انهلّ نور يونيو الباهر عبرها وتجمد ، شاهدت وسط القاعة راهبة بديعة الحسن لم يسبق لها أن رأتها قط عاكفة على عزف إحدى موشحات عيد الفصح على آلة وترية . أصغت إلى الموسيقى دون أن يطرف لها جفن وقد تعلق قلبها بالعزف كأنه يتدلى من خيط إلى أن قرع جرس وجبة الغذاء . عقب تناول الطعام وفيما كانت تنظف الدرج بمقشتها المصنوعة من القصب ، طال بها الانتظار إلى أن انقطعت خطى الرهبان الجدد عن الصعود والهبوط وانفردت بنفسها ، فما عاد أحد يسمعها . عندئذ تحدثت للمرة الأولى منذ ولجت الإرسالية .

قالت :

- إني سعيدة .

على هذا النحو وضع ذلك حداً لآمال الجدة في أن إيرينديرا ستهرب لتعود إلى رحابها ، لكنها أبقت على حصارها الصخري دون أن تتخذ قراراً إلى أحد بنتيكوست . في هذه الأثناء كان المبشرون يجوبون الصحراء بحثاً عن الخليلات اللاتي يبدو حملهن ظاهراً لتزويجهن من عشاقهن . ضربوا في الصحراء حتى أبعد المستوطنات في شاحنة متهالكة ومعهم أربعة جنود مسلحين وخزانة مليئة بالثياب الرخيصة الثمن . كان الجانب الأكثر صعوبة في رحلة الصيد الهندية تلك هو إقناع النسوة اللاتي دافعن عن أنفسهن في مواجهة العناية الربانية بحجة صادقة ، قوامها أن الرجال الراقدين كسالى في أراجيح نومهم يشعرون بأن من حقهم الضروري المطالبة بعمل أشق من الزوجات الشرعيات بالمقارنة بالخليلات . كان من الضروري استدراجهن بالحيلة ودس إرادة الرب في شراب لغتهن لتبدو لهن أقل قسوة . لكن حتى أكثر النسوة دهاء انتهى بها الأمر إلى الاقتناع بفضل زوج من الأقراط البراقة .

أما الرجال فما أن يتم إقناع النسوة حتى تخرجهم أعقاب البنادق من أراجيح النوم ويشد وثاقهم ويلقى بهم إلى مؤخرة الشاحنة لتزويجهم بالقوة .

طوال أيام عديدة شاهدت الجدة الشاحنة الصغيرة مثقلة بالنسوة الهنديات الموشكات على الوضع تقبل إلى الإرسالية ، لكنها لم تدرك الفرصة المواتية ، ولم تصل إلى إدراكها إلا في أحد بنتيكوست ذاته حينما سمعت صوت الصواريخ وقرع الأجراس وشاهدت الجمع البائس والمرح في طريقه إلى الحفل ورأت وسط الجمع نسوة حوامل يضعن نقاب وتاج العروس متأبطات أذرعة رفاق الصدفة الذين سيصبحون أزواجاً لهن في حفل القران الجماعي هذا .

مر في نهاية الموكب صبي جلي البراءة قص شعره على الطراز الهندي ، تكسوه خرق بالية ، يحمل في يده شمعة الفصح وقد تدلت منها أنشوطة حريرية . فنادته الجدة .

تساءلت بأرق نبرات صوتها :

- حدثني يا بني ما دورك في هذا الحفل؟

شعر الفتى بالكرب جراء حمله الشمعة ، وكان من العسير عليه أن يطبق فمه بسبب أسنانه الأمامية الناتئة .

قال :

- سأتناول القربان للمرة الأولى على يد القس .

- كم دفعوا لك؟

- خمسون بيزو .

انتزعت الجدة رزمة أوراق مالية من حافظتها فتطلع إليها الفتى دهشاً .

قالت :

- سأعطيك عشرين بيزو ، لا لتناول قربانك الأول ، وإنما لتتزوج .

- ممن؟

- حفيدتي .

هكذا تزوجت إيرينديرا في فناء الإرسالية مرتدية زيها الكهنوتي وملتفة بشال حريري أهداه إياها الرهبان الجدد ، ودون أن يتاح لها حتى أن تعرف اسم العريس ، الذي ابتاعت جدتها خدماته لأجلها . تحملت بأمل لا يعرف اليقين سبيلاً إليه عذاب الركوع على الأرض الملحية الصخر ، ورائحة شعر الماعز الكريهة المنبعثة من العرائس المائتين الحوامل ، والعقاب المتمثل في رسالة بولس تتلى كلماتها كالمطارق باللاتينية تحت الشمس الحارقة التي لا تريم ، لأن المبشرين لم يجدوا سبيلاً للوقوف في وجه الخدعة الزواج تلك التي لم تخطر لهم على بال ، وإن كانوا قد وعدوها كمحاولة أخيرة بالاحتفاظ بهافي الإرسالية . رغم ذلك فقد وجدت إيريند يرا نفسها عقب الاحتفال وفي حضور المدبر الرسولي والعمدة العسكري الذي دأب على إطلاق النار على السحب وزوجها الذي اقترنت به لتوها ، وجدتها الملتزمة الجمود تحت تأثير السحر الذي سيطر عليها منذ ميلادها . فحينما سألوها عن مكنون إرادتها الحرة الحقة والقاطعة لم تند عنها حتى تنهيدة تردد .

قالت :

- أريد الرحيل .

وأوضحت الأمر مشيرة إلى زوجها :

- ولكن ليس معه ، وإنما بصحبة جدتي .

كان أوليسيس قد بدد أصيلاً بكامله في محاولة اختلاس ثمرة برتقال من سيارة أبيه ، لأن العجوز ما كان ليغفل لحظة عن الثمار خلال تشذيب الأشجار المصابة ، وكانت أمه تراقب البيارة من الدار . هكذا فقد تراجع عن خطته في هذا اليوم على الأقل ، وراح كاظماً غيظه يساعد أباه إلى أن قلما آخر أشجار البرتقال .

كانت البيارة المترامية الأطراف هادئة ومحتجبة عن الأنظار ، وللدار التي بنيت من الأخشاب سقف من الصفيح والقضبان النحاسية المتصالبة أمام النوافذ وشرفة فسيحة رفعت على أعمدة ونباتات برية ذات زهور كثيفة . كانت أم أوليسيس في الشرفة تجلس فوق مقعد هزاز بندقي الطراز ، وقد وضعت وريقات الأشجار مدخنة حول صدغيها لتخفف عنها عناء الصداع ونظرتها الهندية الخالصة تتبع ولدها كأنها شعاع ضياء خفي إلى أبعد أركان البيارة . بدت بهية الحسن أصغر سناً إلى حد كبير من زوجها . لم تكن فحسب مبقية على ارتدائها لزي قبيلتها لكنها كانت كذلك تحيط علماً بمعظم الأسرار العتيقة لأبناء جلدتها .

عندما رجع أوليسيس الدار حاملاً أدوات التقليم طلبت منه أمه أن يناولها جرعة دواء الساعة الرابعة التي كانت على مائدة قريبة . وما أن مست يداه الكوب والزجاجة حتى تغير لونهما . عندئذ مس عابثاً إبريقاً زجاجياً كان على المنضدة إلى جوار بعض الأقداح ، فتحول الإبريق كذلك إلى اللون الأزرق . راقبته أمه فيما كانت تتناول دواءها ، وحينما تيقنت أن الأمر لا يرجع إلى غيبوبة مردها ما تشعر به من ألم سألته بلغة هنود الجواجيرو :

- منذ متى يحدث لك هذا؟

قال بلغة الجواجيرو أيضاً :

- منذ عودتنا من الصحراء ، إنه لا يحدث إلا للأشياء المصنوعة من الزجاج .

وليطلعها على جلية الأمر ، راح يمس الآنية الزجاجية الموضوعة على المنضدة واحدة وراء الأخرى ، فتغيرت أوانيها جميعاً .

قالت أمه :

- هذه الأمور لا تحدث إلا بسبب العشق . من هي؟

لم يحر أوليسيس جواباً . كان أبوه الذي لا يفهم لغة الجواجيرو ماراً إلى جوار الشرفة في هذه اللحظة حاملاً بعض ثمار البرتقال .

سأل أوليسيس بالهولندية :

- عم تتحدثان؟

رد أوليسيس :

- لم نكن نتحدث عن موضوع بعينه .

لم تكن أمه تعرف الهولندية ، حينما ولج زوجها الدار سألت ابنها بلغة الجواجيرو :

- ما الذي قاله؟

رد أوليسيس :

- لم يتحدث عن موضوع بعينه .

غاب أبوه عن ناظريه حينما ولج الدار ، لكنه لاح لعينيه مرة أخرى عبر نافذة المكتب ، انتظرت الأم حتى انفردت بولديها ، وعندئذ كررت سؤالها :

- حدثني ، من هي؟

قال أوليسيس :

- لا أحد .

قالها دون اهتمام ، لأنه كان يتابع حركات أبيه في المكتب ، رآه يضع ثمار البرتقال فوق الخزانة فيما هو يعالج مغاليقها . لكنه فيما كان يرقب أباه راحت أمه ترقبه .

قالت :

- لم تطعم شيئاً من الخبز منذ وقت طويل .

- لست أستسيغه .

فجأة اكتسب محيا الأم حيوية غير مألوفة ، قالت :

- هذا كذب ، ذلك مرده إلى العشق ، فالعشاق لا يستطيعون تناول الخبز

انتقل صوتها ، شأن عينها ، من الابتهال إلى التهديد :

قالت :

- خير لك أن تخبرني من هي ، وإلا أجبرتك على الاستحمام بالمطهرات .

في المكتب ، فتح الهولندي الخزانة ، أودع الثمار البرتقال في داخلها ، وأغلق الباب المصفح . عندئذ ابتعد عن النافذة ورد على أمه نافذ الصبر .

قال :

- قلت لك أن ليس ثمة أحد ، وإذا لم تصدقيني فسلي أبي!

لاح الهولندي أمام مكتبه وهو يشعل غليون البحار الذي لا يفارقه حاملا كتابه المقدس الذي أبلاه الاستخدام تحت إبطه . سألته زوجته بالإسبانية :

- من قابلتما في الصحراء؟

رد زوجها وقد شرعت تلفه سحب الدخان :

- لا أحد ، وإذا لم تصدقيني فسلي أوليسيس!

جلس في نهاية القاعة ، وعكف على غليونه حتى نفد الطباق ، ثم فتح الكتاب المقدس بصورة عشوائية ، وراح يتلو الفقرات التي يقع عليها نظره بلغة هولندية متدفقة رنانة المقاطع .

حينما انتصف الليل كان أوليسيس لا يزال غارقاً في تفكير حرمه عمقه الرقاد . تقلب في أرجوحة نومه ساعة أخرى محاولاً قهر الألم الذي تبعثه الذكريات إلى أن منحه الألم ذاته القوة التي تمس حاجته إليها لاتخاذ قرار . عندئذ ارتدى سراويله الخشنة النسيج وقميصه ذا الزخارف المربعة وانتعل حذاء الركوب ، وقفز من النافذة ، ولاذ بالهرب من الدار في الشاحنة المحمل

بالطيور ، وفيما هو يمر عبر البيارة قطف ثمار البرتقال الناضجة الثلاث التي عجز عن اختلاسها في ذلك الأصيل .

انطلق عبر الصحراء باقي تلك الليلة ، عند الفجر سأل في البلدان والقرى عن مقر إيريندريا ، لكن أحداً لم يستطع إرشاده . أخيراً أبلغوه بأنها ترحل بمعية الحملة الانتخابية للسناتور أونيسيمو سانشيز ، وأنه ربما يكون في ذلك اليوم في نوفا كاستيلا . لم يعثر عليهم هناك ، وإنما في البلدة التالية ولم تكن إيريندريا معه ، فقد أفلحت الجدة في جعل السناتور يشهد برفعة أخلاقه في خطاب سطره بخط يده ، فمضت به تفتح أشد الأبواب استعصاء على الولوج في الصحراء . في اليوم الثالث صادف رجل البريد المحلي ، فأبلغه الأخير بالاتجاه الذي يتعين عليه أن يسلكه .

قال :

- إنهم يمضون صوب البحر ، وخير لك أن تسرع لأن العجوز اللعينة تعتزم عبور البحر إلى جزيرة أوروبا .

مضى أوليسيس في ذلك الاتجاه . وبعد مسيرة نصف يوم ، رصد الخيمة العريضة المرقشة التي ابتاعتها الجدة من سيرك أشهر إفلاسه . كان المصور الجواب قد عاد إليها مقتنعاً بأن العالم ليس فسيحاً حقاً على نحو ما كان يظن ، ونصب مشاهده الرعوية إلى جوار الخيمة ، وراحت الفرقة الموسيقية المؤلفة من نافخي الآلات النحاسية ، تخلب لب زبائن إيريندريا بألحان الفالس المهموسة .

انتظر دوره ليلج الخيمة ، كان أول ما لفت انتباهه الترتيب والنظافة داخل الخيمة . استرد فراش الجدة تألقه المبالغ فيه ، وجثم تمثال الملاك في وضعه إلى جوار الصندوق الجنائزي الذي يضم رفات آل أماديس ، فضلاً عن ذلك كان هناك حوض استحمام من القصدير له مخالب أسد يستند إليها . رقدت إيريندريا على فراشها الجديد ذي الكلة ، عارية ، رابطة الجأش ، تشع وهجاً

طفولياً تحت الضوء المنساب من خارج الخيمة . أغفت مفتوحة للعينين . توقّف إلى جوارها وثمار البرتقال في يده ، فلاحظ أنها تنظر إليه دون أن تراه . عندئذ مرّر كفه أمام عينيها ، ونادها بالاسم الذي ابتدعه حينما كان يرغب في التفكير بها :

- إيريندريا!

استيقظت من غفوتها ، أحست بعريها أمامه ، ندت عنها صيحة قصيرة حادة ، وغطت نفسها بالملاءة حتى عنقها .

قالت :

- لا تنظر إلي ، إنني فظيعة المنظر .

قال :

- لون البرتقال يكسوك .

رفع ثمار البرتقال أمام ناظريها ليتيح لها المقارنة ، قال :

- انظري!

أزاحت الغطاء عن عينيها ، فرأت أن لثمار البرتقال حقاً لون بدنها ذاته .

قالت :

- لست أريدك أن تمكث الآن .

قال :

- أردت فحسب أن أريك هذا ، انظري ها هنا!

قشر ثمرة البرتقال بأظافره ، شطرها بيديه ، وأظهر إيريندريا على ما بداخلها ، ففي قلب الثمرة التصقت ماسة أصيلة .

قال :

- هذه هي ثمار البرتقال التي نحملها عبر الحدود .

صاحت إيريندريا مندهشة :

- لكنها ثمار برتقال تضج بالحياة!

ابتسم قائلاً :

- بالطبع فوالدي يغرس أشجارها ، ويتابع نموها .

لم تستطع إيريندريا تصديق الأمر ، أزاحت الغطاء عن وجهها ، أمسكت الماسة بين أصابعها وتأملتها في دهشة .

قال :

- بثلاث ثمار كهذه يمكننا أن نقوم برحلة حول العالم .

أعادت إليه الماسة وقد لاحت خيبة الأمل في مقلتيها ، فأضاف قائلاً :

- فضلاً عن ذلك فلدي شاحنة صغيرة ، وإلى جوار ذلك . . .انظري!

انتزع من تحت قميصه غدارة عتيقة .

قالت :

- ليس بوسعي الرحيل طوال عشر سنوات .

قال :

- سترحلين ، الليلة ، حين يغفو الحوت الأبيض ، سأكون في الخارج مطلقاً نداء بومة .

قلد صوت البومة صوتاً حقيقياً حتى أن البسمة لمعت في عيني إيريندريا للمرة الأولى .

قالت :

- تماماً كجدتي .

- البومة .

- بل الحوت .

ضحكا معاً مع هذا الخلط ، لكن إيرينديرا التقطت طرف الحديث مجدداً :

- لا تستطيع فتاة الرحيل دون إذن جدتها .

- ليس هناك ما يدعو لقول أي شيء .

قالت :

- ستكتشف الأمر على أي حال ، فهي تحلم بأمور كهذه .

- حين تبدأ الأحلام تراودها عن رحيلك سنكون قد عبرنا الحدود بالفعل ، سنعبرها على نحو ما يفعل المهربون .

قبض على الغدارة بثقة مقاتل محترف في شريط سينمائي . قلد أصوات الطلقات ليثير انفعال إيرينديرا بجرأته . لم تقل أن نعم أو لا ، ولكن تنهيدة لمعت في عينيها ، وودعته بقبلة ، فهمس متأثراً .

- غداً سنرقب السفن تمضي إلى جوارنا .

في تلك الليلة ، عقب السابعة بقليل ، كانت إيرينديرا عاكفة على تمشيط شعر جدتها حينما هبت رياح محنتها من جديد . في حمى الخيمة كان الحمالون الهنود وقائد الفرقة الموسيقية ينتظرون أجورهم . فرغت الجدة من عد رزم النقود على خزانة في متناول يدها ، وبعد مراجعة دفتر صغير دفعت الأجر لأكبر الهنود سناً .

قالت له :

- هاك عشرون بيزو عن الأسبوع ، يخصم منها ثمانية بيزو لقاء الطعام وثلاثة بيزو لقاء الماء وخمسون سنتاً على حساب القمصان الجديدة . إليك ثمانية بيزو وخمسون سنتاً . عدها!

أحصى الهندي العجوز النقود ، وانسحب وجمعه بانحناءة توفير :

- شكراً لك ، أيتها السيدة البيضاء .

أقبل عقب ذلك قائد الفرقة الموسيقية ، فراجعت الجدة دفترها ، والتفت إلى المصور الذي كان يحاول إصلاح وسائد آلة تصويره بحشوات من مادة مطاطية لينة .

سألته :

- ما الذي سيصير إليه الأمر؟ هل ستدفع أم تمتنع عن دفع ربع تكاليف عزف الموسيقى؟

لم يكلف المصور نفسه عناء رفع رأسه ليرد :

- لا تظهر الموسيقى في الصور .

ردت الجدة :

- لكنها تجعل الناس يرغبون في أن تلتقط لهم الصور .

قال :

- بل الأمر على العكس ، فهي تذكرهم بالموتى ، وعندئذ يظهرون في الصور مغمضي العيون .

تدخل قائد الفرقة في الحديث قائلاً :

- ليست الموسيقى هي ما يجعلهم يغمضون أعينهم ، وإنما الضوء الخاطف الذي تصطنعه لدى التقاط الصور ليلاً .

أصر المصور على رأيه :

- بل هي الموسيقى .

أنهت الجدة النزاع قائلة للمصور :

– لا تكن بخيلاً! انظر كيف سارت الأمور سيراً حسناً على السناتور أونيسيمو سانشيز بفضل الموسيقيين الذين يصحبونه .

ثم اختتمت حديثها بنبرة قاسية :

– هكذا عليك بدفع ما ينبغي أن تدفعه أو احضر لتطارد حظك بنفسه ، فليس من الصواب أن تتحمل هذه الطفلة المسكينة عبء النفقات بكاملها .

قال المصور :

– سأطارد حظي بنفسي ، فأنافي نهاية الأمر فنان .

هزت الجدة كتفيها ، والتفتت إلى الموسيقي ، سلمته رزمة من الأوراق المالية تتوافق مع الأرقام المدونة في دفترها .

قالت له :

– مائتان وأربعة وخمسون معزوفة مقابل خمسين سنتاً لكل معزوفة يضاف إليها اثنان وثلاثون معزوفة في أيام الآحاد والإجازات لقاء ستين سنتاً لكل معزوفة ، فالإجمالي إذن مائة وستة وخمسون بيزو وعشرون سنتاً .

لم يقبل الموسيقى النقود .

قال :

– بل المبلغ مائة واثنان وثمانون بيزو وأربعون سنتاً ، فمعزوفات الفالس أكثر ارتفاعاً في مقابلها .

– ولم ذلك؟

– لأنها أكثر مدعاة للحزن .

أرغمته الجدة على تقبل النقود قائلة :

– طيب ، في هذا الأسبوع ستعزفون لنا مقطوعتين مرحتين لقاء كل فالس تدينني به فنكون متعادلين .

لم يتفهم الموسيقي منطق الجدة ، لكنه تقبل الأرقام فيما هو يفض تشابك الأحجية . في هذه اللحظة هددت الرياح المخيفة بانتزاع الخيمة . وفي الصمت الذي خلفته في أعقابها سمعت في الخارج صيحة بومة كئيبة جلية .

لم تدر إيرينديرا ماذا عساها تصنع لتخفي ضيقها ، أغلقت خزانة النقود ، أخفتها تحت الفراش ، لكن الجدة أدركت رعدة الخوف في كفها حينما أعطتها المفتاح ، فقالت لها :

– لا تخافي فالبوم يحلق دوماً في الليالي العاصفة .

رغم ذلك لم تبد مقتنعة إلى هذا الحد حينما رأت المصور ينطلق حاملاً آلة التصوير على ظهره .

قالت له :

– امكث حتى الغد إن أحببت ، فالموت يمضي مطلق السراح الليلة .

كان المصور قد لاحظ بدوره صيحة البومة ، لكنه لم يغير ما عقد العزم عليه .

قالت الجدة مصرة :

– ابق ، يا بني ، ولو من أجل مودتي لك .

قال :

– لكني لن أدفع شيئاً للموسيقيين .

قالت :

– أوه ، لا ليكن أي شيء إلا هذا .

قال :

– أترين؟ لست تحملين في القلب مودة لأحد .

كسا الشحوب ملامح الجدة من فرط الغضب .

قالت :

– إذن فاضرب في الصحراء أيها الوضيع!

تعاظم شعورها بالحنق حتى أنها استمرت تصب عليه جام غضبها فيما كانت إيرينديرا تساعدها في الرقاد ، غمغمت :

– ابن القبيحة! ما الذي يعرفه ابن الحرام ذاك عما في قلوب الآخرين؟ لم تكترث إيرينديرا بها لأن البومة كانت تناديها بإصرار عنيد خلال فترات صمت الرياح وعذاب الشك يأخذ بخناقها . أخيراً دلفت الجدة إلى الفراش مارة بالطقس الذي اعتادته في الدار العتيقة ، وفيما كانت حفيدتها تروح لها تغلبت على حنقها وعادت تلتقط أنفاسها العميقة .

عندئذ قالت :

– عليك بالنهوض مبكرة لتغلي المنقوع لحمامي قبل أن يتوافد الناس .

– نعم ، جدتي!

– حين تغادريني اغسلي ملابس الهنود المتسخة وبهذا يتاح لنا شيء نخصمه من أجرهم في الأسبوع المقبل!

– نعم جدتي!

– وارقدي ببطء حتى لا يحل بك التعب ، فغدا الخميس ، أطول أيام الأسبوع!

– نعم جدتي!

– وأطعمي النعامة!

– نعم جدتي!

تركت المروحة عند رأس الفراش ، وأوقدت شمعتي مذبح أمام الخزانة التي تضم رفات موتاها ، فيما كانت الجدة الغافية تردد أوامرها في فتور وراءها .

– لا تنسى أن توقدى الشموع لآل أماديس!

– نعم ، جدتي!

عندئذ عرفت إيرينديرا أنها لن تستيقظ ؛ لأنها بدأت تهذي . سمعت الرياح تعوي حول الخيمة ، لكنها لم تدرك أنها رياح محنتها في هذه المرة كذلك . حدقت خارجاً في عتمة الليل حتى تردد نداء البومة من جديد ، وتغلب حبها الغريزي للحرية على رقية جدتها السحرية .

لم تكن قد خطت خمس خطوات خارج الخيمة حينما صادفت المصور الذي كان يشد معداته إلى حاملة دراجته . بعثت ابتسامة التواطؤ التي لاحت على شفتيه السكينة في نفسها .

قال :

– لست أدري شيئاً ، لم أر شيئاً . ولن أدفع شيئاً للموسيقيين .

انصرف مباركاً الجميع ، عندئذ انطلقت إيرينديرا تعدو نحو الصحراء بعد أن حسمت أمرها ، فابتلعتها ظلال الرياح حيث كانت البومة تطلق صيحاتها .

في تلك المرة مضت الجدة إلى السلطات المدنية تواً . وثب قائد مفرزة الأمن بالمنطقة من أرجوحة نومه في السادسة صباحاً حينما وضعت خطاب السناتور أمام عينيه .

كان والد أوليسيس في الانتظار عند الباب .

صاح قائد المفرزة :

– كيف تتوقعين بحق الجحيم أن أعزف ما يقوله الخطاب ، إني لا أستطيع القراءة .

قالت الجدة :

– إنه خطاب توصية من السناتور أونيسيمو سانشيز .

انتزع القائد دون مزيد من الأسئلة بندقية معلقة قرب أرجوحة النوم ، وشرع في الصباح مصدراً الأوامر لرجاله . كانوا جميعاً بعد خمس دقائق في شاحنة عسكرية تنهب الطريق نهباً نحو الحدود في مواجهة رياح معاكسة محت كل آثار الهاربين . جلس القائد في المقعد الأمامي إلى جوار السائق وفي الخلف جلس الهولندي والجدة والشرطي على كل لوح من الألواح التي لا تثبت في موضعها .

أوقفوا قرب بلدة قافلة شاحنات غطيت بأقمشة تقيها أثر المطر ، رفع العديد من الرجال المختفين في المؤخرة الأقمشة الواقية وصوبوا مدافع الماكينة وبنادق الجيش نحو العربة الصغيرة . سأل قائد المفرزة سائق العربة الأولى عن المسافة التي تفصلهم عن شاحنة مزرعة محملة بالطيور .

انتقض السائق قبل الرد .

قال مغضباً :

–لسنا عيوناً للشرطة ، نحن مهربون .

رأى القائد المواسيرالقادمة لمدافع الماكينة تمر دانية من عينيه فرفع ذراعيه ، وابتسم .

صاح بهم :

– على الأقل كان بإمكانهم أن تكونوا من اللياقة بحيث لا تتجولون في وضح النهار .

على مخفف صدمة الشاحنة الأخيرة علقت لافتة كتب عليها :«فيك أفكر يا إيريندير!!» .

غدت الرياح أكثر خشونة فيما هم يتجهون شمالاً والشمس أشد ضراوة من الرياح ، وتعذر التنفس بسبب الحر والغبار داخل الشاحنة المغلقة .

كانت الجدة أول من رصد المصور : مضى منطلقاً بدراجته في الاتجاه عينه

الذي كانوا ينهبون على امتداده الطريق ، لم يكن ثمة ما يقيه الشمس إلا منديل لف به رأسه .

أشارت نحوه هاتفة :

– ها هو . كان ضالعاً معهما ، ذلك الوضيع .

أمر القائد أحد الرجال الجاثمين على الألواح أن يتولى أمر المصور .

قال :

– اقتنصه وانتظرنا ، سنعود سريعاً .

قفز الشرطي من الشاحنة وصاح مرتين آمراً المصور بالوقوف . لم يسمعه هذا لأن الرياح كانت تهب في الاتجاه المضاد . حينما غذت الشاحنة المسير ، أشارت له الجدة إشارة مبهمة ، فحسبها تحية له ، ابتسم ، لوح لها محيياً . لم يسمع الطلقة . انقلب في الهواء وهوى ميتاً فوق دراجته وقد نسفت طلقة البندقية رأسه ، لم يقدر له قط أن يعرف من أين جاءت .

قبل انتصاف النهار بدأ ريش الطيور يتراءى لهم . كان الريش المتطاير من طيور صغيرة يحلق مع الرياح ، فتعرفه الهولندي لأنه ريش طيوره ، وقد انتزعته الرياح منها . غيّر السائق الاتجاه ، أرخى العنان للشاحنة وقبل انقضاء نصف الساعة لاحت لهم الشاحنة الصغيرة عند الأفق .

عندما لمح أوليسيس العربة العسكرية في مرآة المؤخرة ، بذل جهداً لزيادة المسافة التي تفصله عنها لكن المحرك لم يسعفه . كانا قد رحلا دون أن يغمض لهما جفن وقد أخذ منهما الإعياء والظمأ كل مأخذ . استيقظت إيريندير التي كانت تغفو على كتفه فزعة . رأت الشاحنة التي توشك أن تطبق عليهما ، وبتصميم بريء التقطت الغدارة من لوحة أجهزة القياس .

قال :

– لا نفع فيها ، فهي عتيقة إلى حد أنها كانت لسير فرانسيس دريك .

لطمت الغدارة عدة مرات الشاحنة ، وألقت بها من النافذة ، تجاوزت الدورية العسكرية الشاحنة المتهالكة المحملة بالطيور ، التي جردتها الرياح من ريشها وانحرفت بصورة حادة وقطعت الطريق عليها .

عرفتهم في ذلك الوقت على وجه التقريب ، عهد سمت تألقهم ، لكنني ما كنت لأعرف تفاصيل حياتهم إلا بعد سنوات عديدة حينما كشف رفاييل إسكالونا في إحدى أغانيه النقاب عن النهاية الفاجعة لهذه المأساة ، وخطر ببالي أنه سيكون أمراً طيباً أن أروي القصة ، كنت أجوب هذه الأنحاء لأبيع دوائر المعارف والكتب الطبية في مقاطعة ريوهاشا . صحبني ألفارو سيبيدا ساموديو الذي كان يضرب كذلك في أرجاء المنطقة ليبيع معدات الجعة في شاحنته عبر مدن الصحراء الصغيرة ليحدثني عن شيء ما ، وتحدثنا كثيراً عما لا طائل وراءه ، وتجرعنا الكثير من الجعة حتى أننا دون أن ندري متى وأين قطعنا الصحراء بكاملها ، وبلغنا الحدود . هنالك ضربت خيمة الحب الجوال تحت لافتات معلقة من القماش كتب عليها : «إيريندريا هي الأفضل ، انطلقوا وعودوا ثانية-إيريندريا في انتظاركم- لا حياة دون إيريندريا» كان الصف المتموج الذي لا نهاية له ويضم رجالاً من أعراق ومراتب اجتماعية شتى يبدو كحية ذات فقرات بشرية تغفو في الأراضي الفسيحة والميادين ، عبر معارض السلع المبهرجة والأسواق الحافلة بالضجيج تقبل خارجة في شوارع تلك المدينة الضاجة بأصوات التجار العابرين . كان كل شارع وكراً للمقامرة ، وكل دار منتدى ، وكل بهو ملاذاً للهاربين ، والأغاني العديدة التي لا سبيل لفض أسرار معانيها وصيحات عرض السلع تشكل زئيراً سداه الفزع في الحر الباعث على الهذيان .

بين حشد من الرجال بلا وطن ولصوص لا يكفون عن التجوال ، اعتلى بلاكامان الطيب منضدة وراح يطالب بأفعى حقيقية ليجرب ترياقاً من اختراعه على لحمه الحي . كانت هناك المرأة التي حولت إلى عنكبوت لعصيانها أبويها ، والتي كانت تدع الناس يمسونها لقاء خمسين سنتاً ليتيقنوا

من أن الأمر لا خداع فيه ، وتجيب على أسئلة أولئك الذين يكترثون بالسؤال عما أصابها ، وكان هناك موفد من الحياة الأبدية يعلن عن قرب وصول خفاش نجمي رهيب تقلب أنفاسه الكبريتية الحارقة ناموس الطبيعة وتدفع بغوامض البحر إلى السطح .

أما المكان الوحيد الذي يسوده السكينة فهو حي البغاء الذي لا يمكن الوصول إليه إلا بدهس جمرات عجاج البشر هذا . كانت نسوة من أربعة أركان الدنيا تتثاءبن في ضجر في الملاهي المهجورة . قضين فترة نوم القيلولة غافيات في جلستهن دون أن يفلح الرواد في إيقاظهن ولكن لا يزلن في انتظار الخفاش النجمي تحت المراوح التي ما تنفك تدور معلقة من السقف . فجأة نهضت إحداهن ومضت إلى شرفة تكسوها الأصص وأزهار البانسيه تطل على الطريق . هناك كان صف الساعين وراء إيريندريا يواصل المرور .

صرخت بهم المرأة :

– هلموا! ما الذي لدى هذه المرأة وليس فينا؟

صاح أحدهم :

– خطاب من السيناتور .

أقبلت أخريات إلى الشرفة وقد اجتذبهن الضجيج والضحكات .

قالت إحداهن :

– كان الصف على هذا النحو طوال أيام . تصورن! خمسون بيزو للمضاجعة الواحدة!

طلعت عليهن المرأة التي خرجت للشرفة بقرار .

– طيب ، سأكتشف ما الذي يحلي ابنة الشهور السبعة تلك .

– وأنا أيضاً . هذا أفضل من أن ننحط على مؤخراتنا .

انضمت إليهن أخريات في الطريق . حينما بلغن خيمة إيرينديرا كن موكباً مشاكساً ، ولجن الخيمة دون إنذار ، استخدمن الوسائد في مطاردة الرجل اللاتي ألفيناه عاكفاً على انفاق حيويته بخير طريق يعوض به نقوده ، انتزعن إيرينديرا من الفراش ، وحملنها إلى الطريق كأنها محفة .

صرخت الجدة :

- هذه فضيحة! أنتن يا زمرة الخائنات! يا قاطعات الطريق .

ثم التفتت إلى الرجال المصطفين قائلة :

- وأنتم أيها البغال ، ماذا دهاكم فلا تحركون ساكناً لوقف هذا الهجوم على طفلة مسكينة لا حول لها ولا قوة ، اللعنة عليكم أيها الحثالة!

ظلت على صراخها طالما تردد صوتها موزعة اللطمات بصولجانها على كل من طالته يداها ، لكن غضبها ابتلعته صرخات الحشد وصفيره الساخر .

لم تستطع إيرينديرا النجاة من السخرية-إذا حالت سلسلة تقييد الكلاب التي تستخدمها جدتها لتقييدها بقدة خشبية في الفراش منذ محاولتها الهرب دون ذلك ، لكنهن لم يتعرضن لها بأذى ، عرضنها على المذبح ذي الكلة عبر أشد الشوارع ضجيجاً كأنها موكب التائب المقيد ، وأخيراً أجلسنها كالتابوت في وسط الميدان الرئيسي للبلدة ، التفت حول نفسها ، وقد حجبت وجهها ، وإن لم تبك ، وظلت على هذا النحو تحت الشمس الرهيبة في الميدان تغض في حنق وشعور عارم بعار سلسلة قدرها التاعس إلى أن حدت طيبة القلب بأحدهم فغطاها بقميص .

كانت تلك هي المرة الوحيدة التي رأيتهم فيها . لكني اكتشفت أنهم مكثوا في تلك البلدة القريبة من الحدود في ظل حماية رجال الأمن إلى أن أتخمت خزائن الجدة بالمال ، ثم تركوا الصحراء ، ويمموا صوب البحر . لم يقدر قط لمثل هذه الثروة أن تجمع في منطقة الفقراء تلك . كانت موكباً من عربات تجرها

الثيران حملت عليها تذكارات من الممتلكات التي ضاعت في كارثة الدار التي تهاوت حطاماً ، لا تضم فحسب تماثيل نصفية بديعة وساعات نادرة وإنما آلة بيان مستخدمة وحاكياً له ذراع لإدارته وأسطوانات تضم أغنيات تبعث الحزن في النفوس . وكان فريق من الهنود يعنى بأمر هذه الحمولة وفرقة موسيقية تعلن عن مقدمهم الظافر في القرى .

كانت الجدة تنتقل محمولة في محفة ذات أكاليل من الورق وهي تمضغ الحبوب التي تضمها حافظتها مستظلة بالكلة الكنسية ، تضخم حجمها الهائل لأنها كانت ترتدي تحت قميصها صدارة من قماش الأشرعة تحتفظ فيها بسبائك الذهب مثلما يحتفظ المرء بطلقات الرصاص في حزام يلتف حول كتفيه . إلى جانبها كانت إيرينديرا ترتدي ثياباً مزركشة ، وقد تجملت بحلى زائفة وإن كانت سلسلة الكلب لا تزال تلتف حول كاحليها .

قالت لها جدتها حينما غادرت البلدة القريبة من الحدود :

- ليس لديك ما يدعوك للشكوى ، فعندك ثياب ملكة ، وفراش وثير ، وفرقة موسيقية خاصة بك ، وأربعة عشر هندياً في خدمتك . ألا تظنين أن هذا رائع .

- بلى ، جدتي!

مضت الجدة قائلة :

- حينما لا أعود إلى جوارك لن تكوني تحت رحمة الرجال ، إذ ستكون لك دار في مدينة كبرى ، ستكونين حرة وسعيدة .

كانت تلك رؤية جديدة ولم يسبق التنبؤ بها للمستقبل . ومن ناحية أخرى لم تعد الجدة تتحدث عن الدين الأصلي الذي التوت تفاصيله وتضخمت أقساطه مع تعقد تكاليف ممارسة العمل . رغم ذلك لم تند تنهيدة واحدة عن إيرينديرا تكشف لأحد عن أفكارها . أذعنت في صمت ، وخضعت لعذاب

الفراش في حفر الصخر الملحي ، في خمود المدن الممتدة على ضفاف البحيرة ، في الأقفاص الشهباء لمناجم الطلق ، فيما جدتها تشدو في سمعها بحلم المستقبل كما لو كانت تقرأ ملامحه في أوراق اللعب . ذات أصيل وفيما كانتا تخرجان من واد ضيق يكتم الأنفاس رصدتا رياح أكاليل غار عتيقة ، وسمعتا مقاطع من أحاديث جمايكا ، وشعرتا برغبة عارمة في الحياة وبقلبيهما ينبضان . كانتا قد بلغتا البحر .

قالت الجدة متنفسة في ضوء الكاريبي المتألق كالبلور بعد أن أمضت نصف عمرها في المنفى :

- ها هو ، ألا يروق لك؟

- بلى ، جدتي!

ضربتا الخيمة هناك . أمضت الجدة الليل في الحديث دونما أحلام ، وفي بعض الأحيان مزجت حنينها للماضي باستشراف المستقبل . أغفت في وقت متأخر عما اعتادت ، واستيقظت هادئة الأعصاب على صوت البحر . رغم ذلك فحينما راحت إيريندرا تحممها مضت تدلي بنبؤاتها عن المستقبل ، وكانت استشرافاً محموماً حتى أنها بدت كتهويمة مستيقظ .

قالت لها :

- ستكون سيدة نبيلة ، سيدة رفيعة المقام يجلها أولئك الذين تشملهم بحمايتها ، وتوقرها السلطات العليا ، ولسوف يرسل قباطنة السفن ببطاقات البريد إليك من كل مرافئ الدنيا .

لم تكن إيريندرا مصغية لها ، كان الماء الساخن المعطر بالأوريجانو ينصب في حوض الاستحمام عبر أنبوب به من الخارج ، فتلقاه إيريندرا في يقطينة جوفاء دون أن تلتقط أنفاسها وتصبه على جدتها بيد وبالأخرى تدلكها بالصابون .

كانت الجدة تقول :

- سيطر صيت دارك من فم إلى فم عابراً سلسلة جزر الأنتيل إلى أرض هولندا ، وسيكون أكثر أهمية من قصرالرئاسة لأن شؤون الحكم ستناقش هناك وسيتقرر مصير الأمة .

فجأة توقف الماء عن الانسياب ، فغادرت إيريندرا الخيمة لتحري جلية الأمر ، ورأت الهندي المكلف يصب الماء في الأنبوب عاكفاً على قطع الأخشاب إلى جوار المطبخ .

قال الهندي :

- لقد نفد ، علينا أن نبرد المزيد من الماء .

مضت إلى الموقد حيث وضع فوقه إناء ضخم تغلي فيه أعشاب ذات رائحة عطرية ، لفت يديها بخرقة ورأت أن بمقدورها رفع الوعاء دون مساعدة الهندي .

قالت له :

- بوسعك الذهاب ، سأصب الماء .

انتظرت إلى أن غادر المطبخ ، ثم رفعت الماء المغلي عن الموقد ، وبعناء رفعته إلى مستوى الأنبوب ، وأوشكت أن تصب الماء القاتل في الأنبوب الموصل إلى حوض الاستحمام ، وعندئذ صاحت جدتها من داخل الخيمة :

- إيريندرا!

بدا الأمر كما لو كانت قد رأتها . تراجعت الحفيدة التي أخافتها الصيحة في اللحظة الأخيرة عما انتوته .

قالت :

- ها أنا ذي قادمة يا جدتي ، إني أبرد الماء .

في تلك الليلة ، رقدت غارقة في التفكير حتى وقت متأخر من الليل فيما

كانت جدتها تشدو في نومها مرتدية صدارها المرقش بالذهب . رمقتها إيرينديرا من فراشها بعينين متوترتين تحاكيان عيني الهرة . ثم أغفت كالغريق وذراعاها على صدرها مفتوحة العينين ، ونادت بكل قوة صوتها الكامن في أعماقها :

- أوليسيس!

استيقظ أوليسيس فجأة في دار البيارة . كان قد سمع صوت إيرينديرا بجلاء بالغ إلى حد أنه راح يبحث عنها في ظلال الغرفة . بعد لحظة تأمل لملم ثيابه في حزمة ومعها أحذيته ، وغادر غرفة النوم . كان قد عبر الشرفة حينما فاجأه صوت أبيه :

- إلى أين تمضي؟

لاح أزرق اللون لعيني أوليسيس في ضوء القمر .

رد قائلاً :

- إلى رحاب الدنيا .

قال الهولندي :

- لن أوقفك هذه المرة ، لكني أحذرك من شيء واحد ، حيثما تمضي ستتبعك لعنة أبيك .

قال أوليسيس :

- ليكن!

رمقه الهولندي دهشاً ، وإن داخله الفخار بعزم ولده الباتر ، بنظرة شرعت الابتسامة وئيدة توشّي أطرافها وهو يمضي عبر البيارة ، كانت امرأته خلفه في وقفة الهندية الجميلة . دمدم حينما أغلق أوليسيس البوابة .

قال :

- سيعود وقد قهرته الحياة بأسرع مما تظنين .

تنهدت قائلة :

- كم أنت غبي ، لن يعود أبداً .

في هذه المرة لم يضطر أوليسيس للسؤال عن مقر إيرينديرا . عبر الصحراء مختفياً في شاحنات عابرة ، اضطر إلى السرقة ليقتات وليجد المأوى . وسرق مرات عديدة لمحض المغامرة إلى أن عثر على الخيمة في بلدة أخرى ساحلية ، كانت المباني الزجاجية تخلع عليها ملمح مدينة يلفها النور حيث تترامى تحيات الوداع البحرية من السفن المقلعة في طريقها إلى جزيرة أروبا . رقدت إيرينديرا مقيدة بالأغلال إلى الفراش في الوضع ذاته الذي يتخذه غريق على الشاطئ الذي نادته منه . وقف أوليسيس يتطلع إليها في حدة أيقظتها . عندئذ تبادلا قبلة في الظلام ، داعب أحدهما الآخر وئيداً ، نزعا ثيابهما في وهن ، وبرقة صامتة وسعادة خفية حاكت الحب بأكثر مما عهدا في أي مرة سابقة :

عند الطرف الآخر من الخيمة تقلبت الجدة الغافية محدثة جلبة هائلة ، وشرعت تتحدث في صخب :

قالت :

- كان ذلك في الوقت الذي وصلت فيه السفينة اليونانية ، كان طاقمها رجالاً أصابهم الجنون يبعثون المسرة في أفئدة النساء ولا يدفعون لهن مالاً وإنما قطعاً من الإسفنج ، إسفنج حي ، يسير فيما بعد ضارباً في أنحاء الدور مصدراً الأنين كالمرضى في مستشفى ودافعاً الأطفال إلى البكاء حتى يرتووا بقطرات دمعهم .

اختلجت واقتعدت الفراش .

صاحت :

- كان ذلك حينما وصل ، يا إلهي ، كان أقوى وأطول وأكثر تدفقاً بالرجولة من أماديس .

حاول أوليسيس الذي لم يبد اكتراثاً حتى ذلك الوقت بالهذيان أن يختبئ حينما رأى الجدة تجلس في الفراش ، فهدأته إيريندِيرا .

قالت له :

- لا عليك ، في كل مرة تصل إلى هذا الموضع من قصتها تنهض في فراشها ، لكنها لا تستيقظ .

انحنى أوليسيس على كتفها .

مضت الجدة في هذيانها قائلة :

- كنت أغني مع البحارة في تلك الليلة ، وظننت أن زلزالاً قد وقع ، لا بد أنهم جميعاً حسبوا الأمر كذلك ، لأنهم انطلقوا عدواً صارخين ، وقد أوشك الضحك أن يقتلهم . ووحده بقي تحت الكلة المرقشة بالنجوم . أذكر كما لو كان الأمر قد وقع البارحة أني أغني الأغنية التي تغنى بها الجميع في هاتيك الأيام ، بل وكانت الببغاوات في الفناء ترددها .

رقدة ممددة كالحشية ، وراحت تغني كما لا يمكن للمرء أن يغني إلا في الأحلام أشعار مرارتها :

- إلهي ، أوه ، يا إلهي ، أعد إلي البراءة التي كانت لي .

لأحس بحبه يغمر بدني كله منذ البداية مجدداً .

عندئذ فحسب ثار اهتمام أوليسيس بحنين الجدة إلى ماضيها .

كانت تقول :

- هنالك وقف ، على كتفه ببغاء طويل الذيل ، وبندقية قصيرة الماسورة . على الهيئة التي وصل بها جواترال إلى جويانا ، أحسست بأنفاس موته حين

وقف أمامي وقال : لقد جبت العالم آلاف المرات ، ورأيت نساء من كل الأمم ، وبمقدوري أن أحدثك حديث خبير محنك بأنك أكثر نساء الأرض تيهاً ولطفاً وحسناً .

رقدت من جديد ، بكت على وسادتها فالتزم أوليسيس وإيريندِيرا الصمت لوقت طويل ، تهدهدهما ظلال التنفس الهائل للعجوز الغافية . فجأة تساءلت إيريندِيرا دون أدنى اختلاجة في صوتها :

- هل تجرؤ على قتلها؟

أخذته الدهشة ، فلم يدرِ بم يرد .

قال :

- من يدري ، أتجرؤين أنت؟

قالت :

- لا أستطيع ، فهي جدتي .

عندئذ تطلع من جديد إلى البدن الهائل الغارق في النوم ، كما لو كان يقيس العافية السارية فيه ، جزم أمره قائلاً :

- من أجلك أجترح أي شيء .

ابتاع رطلاً من سم الفئران ، دسه في القشدة المخفوقة ومربى الفراولة ، وصب القشدة القاتلة في فطيرة أزال منها حشوها الأصلي ، ثم غطاها بقشدة أكثر ثقلاً وسوّى سطحها بملعقة إلى أن اختفت آثار فعلته ، وأكمل الحيلة بوضع اثنتين وسبعين شمعة صغيرة ذات لون أحمر وردي .

جلست الجدة على عرشها ملوحة بصولجانها المفعم تهديداً حينما رأته يقبل على الخيمة حاملاً كعكة عيد الميلاد .

صاحت :

- أيها الشيطان الصفيق كيف تجرؤ على وطء هذا المكان؟

احتمى أوليسيس بملامحه الملائكية .

قال :

- جئت طالباً صفحك في هذا اليوم ، عيد ميلادك .

تخلت عن حذرها لدى سماعها كذبته التي تركت فيها أثرها ، فأمرت في إعداد المائدة كأنما لاحتفال بمأدبة في حفل زفاف . أجلست أوليسيس إلى يمينها فيما راحت إيريندرا تخدمهما . وبعد أن أطفأت الشموع بنفخة واحدة عاصفة قطعت الكعكة إلى شطرين متساويين ، وقدمت قطعة لأوليسيس .

قالت :

- للرجل الذي يعرف كيف ينال الصفح نصف الجنة ، هاك القطعة الأولى ، قطعة السعادة .

قال :

- لست مولعاً بالحلوى ، خذيها!

قدمت الجدة قطعة من الكعكة لإيريندرا ، فحملتها إلى المطبخ ، وألقت بها في النفايات .

التهمت الجدة وحدها باقي الكعكة بكامله ، وضعت قطعاً بكاملها في فمها ، وابتلعتها دون أن تمضغها ، مصدرة تنهيدة استمتاع وناظرة إلى أوليسيس من رحاب مسرتها . وعندما لم يعد هناك المزيد في صحفتها التهمت ما رفضه أوليسيس كذلك ، وفيما كانت تلوك القطعة الأخيرة التقطت من غطاء المائدة ، ودسته في فيها .

كانت قد تناولت قدراً من الزرنيخ يكفي لإبادة جيل كامل من الفئران ، ورغماً عن ذلك فقد عزفت على البيان ، وراحت تغني حتى منتصف الليل ، ودلفت إلى فراشها مغتبطة ، وتمكنت من نيل قسطها المعتاد من الرقاد ، كان

الشيء الوحيد الذي طرأ عليها هو حشرجة تحاكي صوت مقعد هزاز في تنفسها .

عكف أوليسيس وإيريندرا على مراقبتها من الفراش الآخر ، وما كانا إلا في انتظار حشرجة احتضارها ، لكن صوتها كان ريان بالحياة تعهده حينما شرعت تهذي .

صاحت :

- جننت ، يا إلهي ، جننت . وضعت عارضين على باب الخدع حتى لا يستطيع الدخول ، دعمت الباب بطاولة الزينة والمنضدة ، ووضعت الكراسي فوق المنضدة ، وكل ما اضطر للقيام به لإسقاط التحصينات والطرق بخاتمه ، سقطت الكرسي من فوق المنضدة من تلقاء ذاتها ، تباعدت المنضدة وطاولة الزينة من تلقاء ذاتهما ، وانفصلت الدعامات عن مواضعها من تلقاء نفسها .

تطلعا إليها بدهشة متعاظمة ، فيما الهذيان يغدو أكثر عمقاً ومأساوية .

والصوت يكتسب المزيد من الحميمية .

- أحسست أني سألقى حتفي ، بللني عرق الخوف ، توسلت في أعماقي للباب أن يفتح بغير أن ينفتح ، تضرعت له ، أن يدخل دونما دخول ، سألته ألا يبتعد أبداً ، وكذلك ألا يعود قط حتى لا أضطر لقتله!

مضت تكرر مأساتها ساعات طويلة حتى أكثر تفاصيلها حميمية ، كأنما عاشتها من جديد في حلمها . قبيل الفجر تدحرجت في الفراش بحركة هائلة الضجيج ، وتداعى الصوت في غمار فيض من نوبات البكاء .

صاحت :

- حذرته فضحك ، حذرته ثانية فضحك من جديد ، إلى أن فتح عينيه في رعب قائلاً آخ يا ملكة! آخ يا ملكة! ولم يكن صوته منبعثاً من فمه ، وإنما عبر الجرح الذي أحدثته السكين في زوره .

قبض أوليسيس وقد أفزعته الذكرى المخيفة التي استحضرتها الجدة على يد إيريندرا متشبثاً بها .

قال مذهولاً :

– يا للعجوز القاتلة!

لم تبد إيريندرا أي اكتراث به ، لأن الفجر شرع في هذه اللحظة يطل على الدنيا ، دقت الساعة معلنة تمام الخامسة .

قالت :

– اذهب! لسوف تستيقظ حالاً .

قال مندهشاً :

– إن الحياة التي تسري في بدنها تفوق ما في بدن فيل ، هذا مستحيل .

رشقته بنظرة قاطعة كالسكين .

قالت :

– مصدر المشكلة أنك لا تصلح على الإطلاق لقتل أحد .

بلغ تأثره من فجاجة التوبيخ الحد الذي غادر معه الخيمة . واصلت إيريندرا التحديق في الجدة الغافية بمقتها المكنون والغضب النابع من إحباطها فيما الشمس تشرق والهواء الجارح يتهافت . عندئذ فتحت الجدة عينيها وتطلعت إليها بابتسامة رائقة .

– ليكن الله معك يا طفلتي!

كان التغير الوحيد الملحوظ هو بداية اختلال في مسار الحياة اليومية المعتاد . كان اليوم هو الأربعاء ، لكن الجدة رغبت في ارتداء زي الأحد ، وقررت ألا تستقبل أحداً من الزبائن قبل الحادية عشرة ، وطلبت منها أن تطلي لها أظافرها بلون العقيق وأن تزين شعرها على نحو مهيب .

قالت مندهشة :

– لم يسبق لي أن شعرت بمثل هذه القوة بالرغبة في أن تلتقط صورتي .

شرعت إيريندرا تمشط شعرها ، لكنها فيما كانت تشد المشط في الثنايا المتشابكة تعلقت مجموعة من الشعرات بأسنانه ، فأرتها لجدتها ، وقد أخذ منها الانزعاج ، فحصتها الجدة ، انتزعت مجموعة أخرى بأصابعها ، فتعلقت شعرات أخرى بيدها . ألقتها على الأرض . حاولت من جديد ، فانتزعت خصلة أكبر ، عندئذ بدأت تشد شعرها بكلتا يديها ، وقد أوشكت على الموت ضحكاً ، ملقية ملء قبضات من الشعر في الهواء بابتهاج يستعصي على الفهم إلى أن بدت رأسها كجوزة هند نزعت عنها قشرتها .

لم تسمع إيريندرا شيئاً عن أوليسيس إلا بعد أسبوعين ، حينما تناهت إلى سمعها صيحة بومة خارج الخيمة ، كانت الجدة قد شرعت في العزف على البيان ، واستغرقت في حنينها إلى الماضي حتى غابت عن الواقع . كانت قد وضعت شعراً مستعاراً من ريش الطيور الوهاج على رأسها .

لبت إيريندرا النداء ، عندئذ فحسب لاحظت ذبالة الصوت التي تنبعث من البيان ، مضت عبر الشجيرات النامية ، فابتعلها الظلام . انطلقت عدواً إلى حيث كان أوليسيس ، واختبأت إلى جواره وسط الشجيرات . بقلبين يأخذ الضيق بمجمعيهما ، راقبا اللهب الأزرق الضئيل الذي يزحف على امتداد ذبالة الصوت ، عبرا الفراغ المظلم ، وولجا الخيمة .

قال أوليسيس :

– سدي أذنيك!

سدا آذانهما معاً ، دونما حاجة إلى ذلك ، فلم يدو صوت انفجار . توهجت الخيمة في الداخل بوهج متسع ، انفجرت صامته ، واختفت في دوامة من البارود المبلل . حينما جرؤت إيريندرا على الدخول ، وفي ظنها أن جدتها في

الهالكين ، ألفتها وشعرها المستعار ملطخين بالسواد ومنامتها ممزقة، لكنها أكثر تدفقاً بالحياة من ذي قبل ، محاولة إطفاء الحريق بغطاء الفراش .

إنسل أوليسيس مبتعداً تحت غطاء من صيحات الهنود الذين لم يدروا ماذا عساهم يصنعون ، وقد أثارت أوامر الجدة المتضاربة الحيرة فيهم . حينما أفلحوا أخيراً في التغلب على ألسنة اللهيب وتخلصوا من الدخان كانوا كأنما ينظرون إلى حطام سفينة غارقة .

قالت :

- يبدو هذا كما لو كان من عمل الشيطان ، فآلات البيان لا تنفجر ببساطة على هذا النحو .

راحت تضرب أخماساً في أسداس لعلها تصل إلى أسباب الكارثة الجديدة ، لكن مراوغات إيريندرا وموقفها السلبي انتهت إلى بلبلتها ، فلم تستطع اكتشاف أدنى خلل في سلوك حفيدتها ، كما لم يخطر وجود أوليسيس لها على بال . ظلت مستيقظة حتى الفجر تغزل خيوط الافتراضات وتحسب الخسائر ، أغفت قليلاً ودونما استغراق . في الصباح ، حينما نزعت إيريندرا عنها الصدار ذا السبائك الذهبية ، وجدت قروح حريق على كتفيها ولحماً مخدوشاً على صدرها . قالت فيما إيريندرا تضع بياض البيض على القروح :

- عندي ما يقض مضجعي ، فضلاً عن هذا فقد تراءت لي أحلام غريبة .

بذلت جهداً في التركيز لاستحضار الصورة إلى أن غدت جلية في ذاكرتها كما هي في الحلم .

قالت :

- كان طاووساً في أرجوحة بيضاء .

دهشت إيريندرا ، لكنها استردت تواً التعبير المألوف الذي يعلو ملامحها .

قالت كاذبة :

- هذا فال حسن ، فالطواويس في الأحلام هي مخلوقات سيطول بها العمر .

قالت الجدة :

- سمع الله منك ، لأننا عدنا إلى حيث بدأنا وعلينا أن نبدأ الأمر كله من جديد .

لم يتغير التعبير المرتسم على محيا إيريندرا ، خرجت من الخيمة حاملة صحفة مليئة بالكمادات ، وتركت جدتها وجسمها مدهون ببياض البيض ، وجمجمتها ملطخة بالخردل . كانت تضع المزيد من بياض البيض في الصحفة تحت عريش سعف النخيل المتخذ مطبخاً حينما لاحت لها عينا أوليسيس وراء الموقد كما تبدتا لها لأول مرة وراء الفراش . لم تفاجأ ، وإنما قالت له بصوت مرهق :

- لم تفلح إلا في زيادة ما أنا مدينة به .

طفت سحابة قلق عبر عينيه . تجمد في موضعه ، حدق فيها صامتاً وهي تكسر البيض ، وقد كسا ملامحها تعبير ثابت قوامه النفور المطلق ، كما لو لم يكن له وجود . بعد لحظة تحركت العينان ، أطلت على الأشياء في المطبخ . الأواني المدلاة ، السكين المشحوذة ، خيوط الثمار المجففة . وقف في موضعه وما يزال على صمته ، مضى تحت العريش ، أنزل السكين من موضعها .

لم تنظر إليه إيريندرا من جديد ، لكنه حين غادر العريش قالت له بصوت بالغت في خفضه :

- كن حذراً ، لأنها تلقت تحذيراً من قرب دنو أجلها ، فقد تراءى لها في الحلم طاووس في أرجوحة بيضاء .

رأت الجدة أوليسيس مقبلاً بالسكين ، فبذلت جهداً فائقاً ، ونهضت دون الاستناد إلى عصاها ، ورفعت ذراعيها .

صاحت :

- إيها الفتى! هل جننت؟

وثب عليها ، وأغمد السكين في صدرها العاري . أنّت ، سقطت ، حاول خنقه بذراعيها القويين المجردين .

دمدمت :

- يا ابن الكلبة! تأخرت كثيراً في اكتشاف أن لك وجه الملاك الساقط .

عجزت عن إضافة المزيد لأنه نجح في استلال السكين وطعنها مرة ثانية في جانبها . أطلقت أنيناً مكتوماً واعتنقت مهاجمها بمزيد من القوة . طعنها مرة ثالثة دونما شفقة ، فلطم نثار دم فجرّه الضغط العالي وجهه : كان رمداً دهنياً لامعاً أخضر تماماً كعسل النعناع .

ظهرت إيرينديرا عند المدخل بالصحفة في يدها ، وراقبت الصراع بسلبية المشارك في جرم .

أمسكت الجدة في عتو بجسم أوليسيس وقد تبدّت هائلة ، جرمة ، هادرة بالألم والحنق . اكتسى ذراعاها وساقاها بل وحتى رأسها المجردة من الشعر بخضرة هي لون الدم . ملأ تنفسها الهائل الصاك الذي حشرجته قعقعات الموت الأولى المنطقة بأسرها . أفلح أوليسيس في تحرير ذراعه القابض على السلاح من جديد ، فمزق كرشها ، أغرقه انفجار من الدم بالخضرة من قمة رأسه حتى أخمص قدمه . حاولت الوصول إلى الهواء الذي تمس حاجتها إليه الآن لتواصل الحياة فسقطت ووجهها إلى الأرض . ابتعد عن الذراعين اللذين خبت فيهما الحياة ، ودون أن يتوقف لحظة طعن الجسد الساقط الهائل طعنة أخيرة .

عندئذ وضعت إيرينديرا الصحفة على المائدة ، وانحنت فوق جدتها تتفحصها دون أن تمسها ، حينما اقتنعت بأنها فارقت الحياة اكتسب وجهها فجأة كل النضج الذي لشخص أكبر منها عمراً ، والذي لم تمنحها إياه سنوات عمرها العشرين الحافلة بالمحن . انتزعت الصدار الذهبي بحركات سريعة ودقيقة ، وغادرت الخيمة .

ظل أوليسيس جالساً إلى جوار الجثة وقد أنهكه القتال . وكلما زاد في محاولته تنظيف وجهه تضاعف تلطخه بتلك المادة الخضراء الحية ، التي تبدو كما لو كانت تتدفق من أصابعه . وحينما شاهد إيرينديرا تمضي بالصدار الذهبي فحسب أدرك حالته .

صاح يناديها ، لكنه لم يتلق رداً . جر نفسه إلى مدخل الخيمة ، فرأى إيرينديرا تشرع في العدو على امتداد الشاطئ بعيداً عن المدينة . عندئذ أتى بجهد أخير ليطاردها منادياً إياها بصيحات ملؤها الألم ، لم تعد صيحات عاشق ، وإنما صيحات ابن لأمه ، لكنه غرق تحت الوقر المخيف لقتله امرأة دونما عون من أحد . لحق به هنود الجدة ، وهو راقد ووجهه على أرض الشاطئ يبكي من العزلة والخوف .

لم تكن إيرينديرا قد سمعته . مضت تعدو باتجاه الريح أسرع من الغزالة . فلم يستطع صوت من أصوات هذا العالم إيقافها . دون أن تلتفت انطلقت تعدو متجاوزة حفر الصخر الملحي ، وفوهات مناجم الطلق ، وخمود الأكواخ إلى أن انتهى الجمال الطبيعي للبحر وبدأت الصحراء . لكنها واصلت العدو بالصدار الذهبي متجاوزة الرياح اللافحة ولحظات الغروب التي لا تنتهي ، فلم يسمع أحد عنها ثانية قط ، ولم يعثر أبداً على أدنى أثر لمحنتها .

بحر الزمن المفقود

ازداد البحر عنفواناً مع اقتراب يناير من نهايته . شرع في إغراق المدينة بنفايته الثقيلة . وإن هي إلا أسابيع قليلة حتى تلوث كل شيء بمزاجه العصي الاحتمال . منذ ذلك الوقت فصاعداً لم تعد الدنيا جديرة بأن يبقى المرء فيها على الأقل إلى أن يحل ديسمبر المقبل ، هكذا لم يعد أحد يحتفظ بيقظته بعد الثامنة مساء . ولكن البحر لم ينقلب في العام الذي أقبل فيه السيد هربرت ، لم يحدث ذلك حتى في شهر فبراير ، بل على العكس من ذلك غدا أكثر نعومة وتموجاً بالنور . وضاع بعبير الورود خلال الليالي الأولى من مارس .

اشتم توبياس العبير . اجتذب دمه السرطانات البحرية ، وأمضى نصف الليل يطاردها بعيداً عن فراشه إلى أن سرى النسيم من جديد ، فتمكن من الرقاد . تعلم طوال لحظات رقاده الطويل مسهداً كيف يميز التغيرات التي تطرأ على الهواء جميعاً ، هكذا فحين يشتم رائحة الورود فإنه لا يحتاج إلى فتح الباب ليعرف أنها منبعثة من البحر .

استيقظ متأخراً . كانت كلوتيلدة قد شرعت في إضرام النار بالفناء . سرى النسيم بارداً ولاحت النجوم جميعاً في مكانها ، لكنه كان من العسير عدها هبوطاً حتى الأفق بسبب الأنواع المنبعثة من البحر . بعد ارتشاف قهوته كان لا يزال بمقدوره أن يتذوق أثر الليل على صحفته .

قال متذكراً :

- حدثت شيء غريب البارحة .

لم تكن كلوتيلدة قد شمت الرائحة ، غاصت في نوم ثقيل حتى عجزت عن تذكر أحلامها .

قال :

- كانت رائحة ورود ، ويقيني أنها جاءت من البحر .

قالت كلوتيلدة :

- لست أدري ما هي رائحة الورود .

كان يمكن أن تكون على حق فيما قالت ، فالبلدة قاحلة ، ذات تربة تتخللها الصخور الملحية ، وفي أوقات متباعدة فحسب كان أحدهم يجلب باقة زهور من بعيد ليلقيها إلى البحر حيث يلقون بموتاهم .

قال توبياس :

- إنها رائحة ذلك الغريق من جواكامايل .

قالت كلوتيلدة مبتسمة :

- طيب . إذا كانت رائحة طيبة فبمقدورك أن تكون على يقين من أنها لم تأت من البحر .

كان بحراً ضارياً حقاً ، ففي أوقات معينة حين تخرج الشباك خاوية إلا من النفاية الطافية ، تكون الشوارع متخمة لا تزال بالأسماك النافقة حينما يتدفق المد . والديناميت وحده هو الذي يدفع ببقايا حطام السفن إلى السطح .

كانت أعماق النسوة القلائل اللاتي بقين في البلدة أمثال كلوتيلدة تغلي بالمرارة ، وشأنها أيضاً كانت هناك زوجة العجوز جاكوب التي نهضت في ذلك الصباح مبكرة عن المعتاد ، وعكفت على إعادة النظام للدار ، وجلست لتناوا طعام الإفطار ، وقد بدا عليها الكرب الشديد :

قالت لزوجها :

- أمنيتي الأخيرة أن أدفن حية .

قالتها كما لو كانت راقدة على فراش موتها ، لكنها كانت جالسة عبر المنضدة في غرفة الطعام ذات النوافذ التي كان ضياء مارس الوهاج يتدفق منها وينتشر عبر الدار . كان جاكوب العجوز يجلس بازائها مهدئاً جوعه المسالم ، كان قد غرق في حبها عميقاً ، وعبر زمن طويل إلى حداثة لم يعد بمقدوره التفكير في لون من ألوان المعاناة لم يبدأ مع وجود زوجته .

مضت في حديثها :

- أريد أن أموت متيقنة من أنني سأدفن تحت الأرض كالناس المهذبين ، والسبيل الوحيد لذلك هو أن أمشي في مطالبة الناس بأن يسدوا لي جميل دفني حية .

قال جاكوب بأقصى قدر من الهدوء :

- ليس هناك ما يدعوك لأن تطلبي ذلك من أحد فسأقوم به بنفسي .

قالت :

- هيا إذن ، لأني سألقى حتفي قريباً .

تطلع إليها جاكوب مدققاً ، كانت عيناها الشيء الوحيد الذي لا يزال على نضارته . التفت عظامها عند المفاصل ، وبدت كما لو كانت حقلاً حرثه الحراثون ، وهو ما كانت دائماً في واقع الأمر .

قال لها :

- أنت في خير حال .

تنهدت قائلة :

- ليلة الأمس شممت رائحة الورود .

قال مطمئناً إياها :

- لا تبالي ، فالفقراء من أمثالنا تعرض لهم أمور كهذه دائماً .

قالت :

- هراء ، لقد دعوت دائماً أن أعرف بموتي قبل مقدمه حتى ألقى حتفي بعيدة عن البحر ، ورائحة الورود في هذه البلدة لا يمكن إلا أن تكون رسالة من الرب .

كان كل ما استطاع جاكوب أن يفكر فيه هو أن يطلب بعض الوقت ليعيد ترتيب الأمور . كان قد سمع بأن الناس لا يموتون حين ينبغي أن يموتوا وإنما حين يريدون ذلك ، وقد أقلته هواجس زوجته على نحو جاد بل تساءل عما إذا كانت قدرته ستسمح له حين يحل الأوان بدفنها .

في التاسعة فتح المكان الذي يتخذه متجراً ، وضع مقعدين ومنضدة صغيرة فوقها رقعة الداما إلى جوار الباب ، وأنفق الضحى بكامله يلعب لخصمين يقفان وجهاً لوجه . أطل من داره على المدينة التي غدت أطلالاً ، على خرائب بلدة ترقشها بقايا ألوان كانت لها ، وحالت تحت وطأة الشمس ، على كنف البحر المطل عند نهاية الطريق .

قبل حلول موعد الغداء ، لعب مع دون مكسيمو جوميز ، لم يكن بمقدوره أن يتصور خصماً أكثر إنسانية من رجل خرج سليماً من حربين أهليتين وضحى في الثالثة بإحدى عينيه فحسب . بعد أن خسر أمامه دوراً متعمداً أصر على بقائه للعب دور ثالث .

عندئذ سأله :

- حدثني يا دون مكسيمو ، ترى هل بمقدورك أن تدفن زوجتك حية؟

رد دون مكسيمو جوميز :

- بالقطع ، بوسعك أن تصدقني حينما أقول إن يدي لن ترتجف .

غرق جاكوب العجوز في صمت المندهش ، وبعد أن تعمد أن يسلبه الآخر أفضل قطعة ، تنهد قائلاً :

- طيب ، يبدو أن بيترا ستلقى حتفها .

لم يتغير التعبير المرتسم على ملامح دون مكسيمو جوميز ، قال :

- في هذه الحالة ، ليس هناك ما يعدو لدفنها حية .

اختطف قطعتين ، وتوج غنائمه بملك ، ثم ثبت عيناً تنديها قطرات حزينة على خصمه .

- ماذا أصابها؟

أوضح جاكوب الأمر :

- اشتمت البارحة رائحة ورود .

قال دون مكسيمو جوميز :

- إذن فسيلقى نصف أبناء البلدة حتفهم ، كان هذا هو شغلهم الشاغل صباح اليوم .

كان من العسير على جاكوب أن يخسر دوراً آخر دون أن يضايقه ، أدخل المنضدة والمقاعد ، وأغلق الحانوت ، ومضى متسكعاً باحثاً عن أحد اشتم الرائحة . وفي النهاية كان توبياس وحده هو المتيقن من أنه شم تلك الرائحة ، فرجاه أن يأتي إلى داره كما لو كان ماراً بالصدفة وأن يحدثها بالأمر كله .

قام توبياس بما طلب منه ، ففي الرابعة من بعد الظهر لاح مرتدياً ملابس الأحد عند الشرفة ، حيث تقضي الزوجة الأصيل في إعداد ثوب الأرمل لجاكوب العجوز .

كان قد أقبل في هدوء بالغ إلى حد أن المرأة فزعت حينما أدركت وجوده .

صاحت :

- يا رب ارحم! حسبتك جابرييل كبير الملائكة!

قال توبياس :

- بوسعك أن ترى أن الأمر ليس كذلك ، ليس هناك إلاي ، وقد جئتك لأحدثك بشيء .

ثبتت عويناتها ، واستأنفت العمل :

قالت :

- أعرف جلية الأمر .

قال :

- أراهن أنك لا تعرفين .

- لقد شممت رائحة الورود البارحة .

تساءل توبياس في قنوط :

- كيف عرفت؟

قالت المرأة :

- في مثل عمري يبقى الكثير من الوقت للاعتقاد بأن بوسع شخص ما أن يدلني بالنبوءات .

وقف جاكوب العجوز ، الذي ألصق أذنه بالحائط الفاصل في مؤخرة المتجر ، غارقاً في عرق الخجل .

صاح عبر الحائط :

- الأمر كما ترين يا امرأة!

قام بدورة كاملة ، وظهر عند الشرفة مضيفاً .

- لم يكن الأمر كما حسبت في النهاية .

قالت دون أن ترفع رأسها :

- هذا الفتى يكذب ، فهو لم يشم شيئاً .

قال توبياس :

- كان ذلك في حوالي الحادية‌عشرة ، كنت أطرد السرطانات بعيداً .

أكملت المرأة إصلاح الياقة .

قالت مصرة :

- أكاذيب ، الكل يعلم أنك غشاش!

قضمت طرف الخيط بأسنانها ، ونظرت إلى توبياس من فوق عويناتها .

- ما لا أستطيع فهمه هو السر في أنك كلفت نفسك عناء وضع دهان على شعرك ولمعت حذاءك لا لشيء إلا لتبدي هذا القدر من عدم الاحترام لي .

منذ ذلك الحين فصاعداً شرع توبياس يرقب البحر . علق أرجوحة نومه على الشرفة إلى جوار الفناء ، وأمضى الليالي منتظراً ، مندهشاً بما يجري في الدنيا والناس نيام . طوال ليال عديدة كان بمقدوره أن يسمع خربشة السرطانات اليائسة وهي تحاول تسلق دعامات الدار بأطرافها إلى أن مضت ليال دفع ترادفها اليأس في أعماقها ، فسئمت من المحاولة . عرف طريقة كلوتيلدة في الرقاد. اكتشفت كيف أن صوت شخيرها الذي يرن كعزف الفلوت يصبح بالغ الارتفاع مع تكاثف الحر واشتداد حدته إلى أن يغدو نغمة واحدة مرهقة في خمود يوليو .

في البداية واصل توبياس مراقبة البحر على نحو ما يفعل أولئك الذين يعرفونه خير المعرفة ، مثبتاً نظره على نقطة واحدة في الأفق . راقبه وهو يبدل لونه ، راقبه وهو يطفئ أنواره ويزبد ويتسخ ويتجشأ نافثاً نفاياته حين تصيبه العواصف المطيرة بعسر الهضم . وشيئاً فشيئاً تعلم أن يرقبه مثلما يفعل من هم

أكثر معرفة به ، دون أن ينظر إليه ، وإن كان عاجزاً عن نسيان أمره حتى في نعاسه .

ماتت زوجة جاكوب العجوز في أغسطس . ماتت في نومها ، واضطروا ، شأن الآخرين جميعاً ، إلى أن يلقوا بها إلى اليم الخالي من الزهور . واصل توبياس الانتظار . كان الانتظار قد طال به إلى حد أنه أصبح نمط وجوده . ذات ليلة وفيما كان النعاس يوشك أن يداهمه في أرجوحته أدرك أن شيئاً ما في الهواء قد تغير . كانت موجه متقطعة ، كتلك التي تدافعت حينما طرحت سفينة يابانية حمولة من البصل المتعفن عند مدخل المرفأ . عندئذ تكاثفت الرائحة وجثمت بلا حراك حتى الفجر . لم يقفز من أرجوحته ماضياً إلى غرفة كلوتيلدة إلا حين أحس أن بمقدوره أن يمسك الموجة بكفيه ويعرضها للناظرين . هز كلوتيلدة عدة مرات .

قال لها :

- ها هي!

اضطرت كلوتيلده إلى إزاحة الرائحة جانباً لتتمكن من النهوض ثم سقطت ثانية على ملاءتها الفاترة .

قالت :

- ليلعنها الله!

وثب توبياس ناحية الباب ، انطلق عدواً إلى منتصف الشارع وشرع في الصياح . صرخ بكل قوته . التقط نفساً عميقاً . وصرخ من جديد ، ثم ساد الصمت فالتقط نفساً عميقاً ، وصرخ من جديد ، ثم ساد الصمت فالتقط نفساً أكثر عمقاً ، وكانت الرائحة لا تزال جاثمة فوق البحر ، لكن أحداً لم يرد ، عندئذ مضى من دار إلى أخرى يقرع الأبواب ، حتى أبواب تلك الدور التي لا يملكها أحد إلى أن اختلط ضجيجه بنباح الكلاب وأيقظ الجميع .

لم يستطع كثيرون شم الرائحة ، لكن آخرين ، وخاصة الكهول مضوا إلى الشاطئ للاستمتاع بها . كانت عرفاً كثيفاً لا يدع فراغاً لأي رائحة من الماضي . عاد البعض إلى الدور وقد أرهقهم الإغراق في التشمم . فيما بقي معظم الناس ليكملوا نعاس ليلتهم على الشاطئ . عند الفجر كانت الرائحة من النقاء بحيث أن شمها كان أمراً مؤسفاً إذ يبددها .

أغفى توبياس الشطر الأعظم من النهار ، وشاركته كلوتيلدة الإغفاء وقت القيلولة ، فأمضيا الأصيل يمرحان في الفراش حتى دون أن يوصدا الباب المطل على الفناء . في البداية أتيا الأمر كديدان الأرض ، ثم كالأرانب ، وفي النهاية مثل السلاحف إلى أن لف الحزن الدنيا ، وأرخى الليل سدوله من جديد . كانت هناك بقية من ورود في الهواء ، وفي بعض الأحيان كانت موجة من الموسيقى تبلغ المخدع .

قالت كلوتيلدة :

- إنها تتناهى من قاعة كاتارينو ، لا بد أن أحداً قد وصل إلى البلدة .

كان ثلاثة رجال وامرأة قد أقبلوا . حدث كاتارينو نفسه بأن آخرين قد يجيئون في وقت لاحق ، وحاول أن يصلح حاكيه . ولما لم يكن بوسعه القيام بذلك فقد طلب هذا من بانكو أبارسيرو الذي يقوم بكل شيء لأنه لم يتملك قط شيئاً وفضلاً عن ذلك فقد كان لديه صندوق للأدوات ويدان محنكتان .

لا يعدو محل كاتارينو أن يكون بناء خشبياً متداعياً يواجه البحر ، يضم غرفة واحدة رحبة ذات أرائك ومناضد صغيرة وعدة مخادع في الخلف . مضى الرجال الثلاثة والمرأة يشربون في صمت . وهم يرقبون بانكو أباسيرو عاكفاً على العمل ، جالسين أمام المشرب يتبادلون التثاؤب .

بعد محاولات عديدة تم تشغيل الحاكي بصورة طيبة . كف الناس عن الثرثرة لدى سماعهم الموسيقى تصل جلية ، وإن كانت نائية المصدر . تطلع

أحدهم إلى الآخر دون أن ينبسوا ببنت شفة للحظة إذا أدركوا عندئذ فحسب كم تقدم بهم العمر منذ أصغوا إلى الموسيقى لآخر مرة .

وجد توبياس الجميع مستيقظين بعد الساعة التاسعة جلسوا في مداخل دورهم يصغون إلى أسطوانات كاتارينو العتيقة بنظرة الاستسلام الطفولي للقدر ذاته الذي يرتسم على ملامح قوم يرقبون خسوف القمر . كانت كل أسطوانة تذكرهم بأحد الموتى ، بمذاق الطعام بعد مرض طويل ، أو بشيء كان عليهم القيام به في الغد قبل سنوات طويلة ، ولم يقوموا به لأنهم نسوه .

توقفت الموسيقى في حوالي الحادية عشرة . دلف الكثيرون إلى مضاجعهم ، وهم يظنون أن السماء ستمطر لأن سحابة معتمة رقّشت وجه البحر . لكن السحابة هبطت ، حومت برهة فوق السطح ، ثم غاصت في الماء . وحدها النجوم ظلت في الأعالي ، وبعد قليل انساب النسيم خارجاً من البلدة ، وعاد برائحة الورود .

صاح دون مكسيمو جوميز دهشاً :

- تماماً كما حدثتك ، يا جاكوب ، ها هي تعود إلينا ، يقيني أننا سنشمها كل ليلة .

قال جاكوب العجوز :

- لا سمح الله! هذه الرائحة هي الشيء الوحيد في الحياة الذي جاء متأخراً كثيراً بالنسبة لي .

كانا عاكفين على الداما في المتجر الخاوي دون مبالاة بالأسطوانات ، إذا كانت ذكرياتهما من القدم بحيث أنه لم تكن هناك أسطوانات عتيقة بما يكفي لتحريكها من مرقدها .

قال دون مكسيمو جوميز :

- لست أصدق أي شيء من هذا ، فبعد مثل هذه السنوات الطويلة من

تناول التراب ، ومع هذا العدد الكبير من النساء الراغبات في فناء صغير يزرعن فيه الورود ليس من الغريب أن ينتهي الأمر بالمرء إلى شم أشياء كهذه بل وتصديق أن الأمر كله حقيقي .

قال جاكوب العجوز :

- لكن بمقدورنا شمها بأنوفنا .

قال دون مكسيمو جوميز :

- ولو! خلال الحرب ، حينما كانت الثورة قد تعرضت بالفعل للضياع تقنا بحدة إلى قائد يجمع شملنا حتى أن دوق مارلبورو تراءى أمامنا بلحمه وشحمه ، لقد رأيته بعيني يا جاكوب!

تجاوز الوقت منتصف الليل ، حينما غدا جاكوب العجوز وحيداً أغلق متجره ، وحمل مصباحه إلى المخدع . لمح عبر النافذة التي أبرز وهج البحر حوافها الجوف الذي يلقون منه بجثث الموتى .

نادى بصوت رقيق :

- بيترا!

لم تستطع سماعه ، فقد كانت في هذه اللحظة طافية على سطح الماء تقريباً تحت شمس الظهيرة المطلة على خليج البنغال . رفعت رأسها لتنظر عبر الماء ، كأنما لتطل عبر واجهة معروضات مضاءة ، على عابرة محيطات هائلة . لكنها لم تستطع مشاهدة زوجها ، الذي كان في تلك اللحظة على الجانب الآخر من العالم قد شرع من جديد في الإصغاء إلى صوت حاكي كاتارينو .

قال جاكوب العجوز :

- تأملي الأمر! قبل ستة شهور فحسب ظنوا أنك جننت ، الآن هم الذين يقيمون مهرجاناً من رحاب الرائحة التي جلبت الموت لك .

أطفأ النور ودلف إلى الفراش . بكيء وئيداً غارقاً في ذلك النشيج الموحش الذي يميز الكهول ، لكنه سرعان ما أغفى .

قال باكياً وهو يتقلب في مضجعه :

– سأرحل عن هذه البلدة إن استطعت ، سأمضي قدماً إلى الجحيم أو إلى أي مكان آخر إن استطعت ادخار عشرين بيزو .

منذ تلك الليلة فصاعداً وطوال أسابيع عديدة ، جثمت الرائحة فوق البحر . أخصبت أخشاب الدور ، الطعام ، وماء الشرب ، ولم يعد ثمة مكان يلاذ به منها . انزعج كثيرون إذ ألفوها في روائح بقاياهم . غادر الرجال والنسوة الذين أقبلوا على مشرب كاتارينو في البلدة ذات يوم من أيام الجمعة ، لكنهم عادوا في اليوم التالي ومعهم جمع الغوغاء كله . وصل آخرون يوم الأحد ، انتشروا داخل وخارج كل الأماكن مثلما القمل ، باحثين عن طعام ومأوى ، إلى أن غدا السير في الشوارع مستحيلاً .

تدفق المزيد من الناس . عادت النسوة اللاتي غادرن المدينة حين أخذ الموات بخناقها إلى مشرب كاتارينو . كن أكثر بدانة وأشد إيغالاً في التجمل ، وجلبن معهن أحدث الأسطوانات التي لم تذكر أحداً بأي شيء . عاد بعض سكان المدينة السابقين . كانوا قد انطلقوا ليجمعوا ثروات وضيعة في أماكن أخرى وعادوا متشدقين بثرواتهم ، وإن كانوا يرتدون الملابس ذاتها التي غادروا بها البلدة . وصل الموسيقيون ، مؤدو الاستعراضات ، عربات القمار ، العرافون ، القتلة المحترفون ، ورجال يلفون الثعابين حول أعناقهم ويبيعون إكسير الحياة الخالدة . استمر توافدهم أسابيع طويلة حتى بعد هطول الأمطار الأولى وازدياد عنفوان البحر واختفاء الرائحة .

وصل قس بين آخر من أقبلوا . قطع الطريق كله سيراً ، متناولاً الخبز المغموس في قهوة خفيفة . وشيئاً فشيئاً حظر كل ما وصل إلى البلدة قبل مجيئه ، ألعاب الحظ ، الموسيقى الجديدة والطريقة التي يرقصون بها على

إيقاعها ، بل وحتى عدة النوم على الشاطئ التي درج الناس عليها أخيراً . وذات مساء ألقى في دار ميلكور عظة عن رائحة البحر .

قال :

– اشكروا السماء يا أبنائي ، فتلك رائحة الرب .

قاطعه أحدهم :

– كيفَ يمكنكَ القول بذلك يا أبت؟ إنك لمْ تشمها بعد .

قال :

– إن الكتب المقدسة واضحة تماماً فيما يتعلق بهذه الرائحة ، إننا نقيم في قرية اختارها الرب .

راح توبياس يضرب جيئة وذهاباً في المهرجان كالسائر في نومه . اصطحب كلوتيلدة ليريها النقود . أوهما نفسيهما بأنهما يقامران بمبالغ كبيرة في لعبة الروليت ، ثم راحا يخمنان الأرقام الفائزة وأحسا بمتعة الثراء الطائل بالمال الذي كان يمكن أن يربحاه . ولكن ذات ليلة لم يرياهما وحدهما ، وإنما الجمع بأسره الذي يحتل البلدة ، من النقود في مكان واحد أكثر مما كان يمكن أن يخطر ببالهم أو يتصوروه .

كان ذلك في الليلة التي أقبل فيها السيد هربرت ، ظهر فجأة . وضع مائدة في منتصف الشارع . وأراح فوقها حقيبتين متخمتين بالأوراق المالية . كانت هناك أموال هائلة إلى حد أن أحداً لم يلحظها في البداية ؛ إذ لم يصدق أحد أن الأمر حقيقي . ولكن حينما شرع السيد هربرت يقرع جرساً صغيراً ، اضطر الناس لتصديقه ، وهرعوا إليه ليسمعوا منه .

قال :

– أنا أغنى رجل في الدنيا ، لدي أموال طائلة حتى لم يعد عندي مكان

لحفظها ، فضلاً عن هذا ولما كان قلبي كبيراً بحيث لا تسعه جزانتي ، فقد قررت السفر حول العالم بأسره لحل مشكلات البشرية .

كان طويل القامة ، ضارب اللون إلى الحمرة ، يتحدث بصوت عال ودون أن يتخلل الصمت حديثه ، ويلوح في الوقت نفسه بيدين فاترتين كسولتين ، تبدوان دائماً وكأنما حلق شعرهما لتوه . تحدث لمدة خمس عشرة دقيقة ، وارتاح قليلاً ، ثم قرع الجرس الصغير ، وشرع في الحديث ثانية ، في منتصف خطابه لوح أحد الحضور بقبعته وقاطعه قائلاً :

- هلم يا سيد ، لا تكثر من الحديث وابدأ توزيع النقود!

رد السيد هربرت :

- ليس بمثل هذه السرعة ، فتوزيع المال دون نظام أو سبب ، فضلاً عن كونه أسلوباً تنقصه العدالة في أداء الأمور ، لا معنى له على الإطلاق .

رصد بعينيه الرجل الذي قاطعه ، وأشار إليه بالتقدم ، فأتاح له الجمع ذلك .

استطرد السيد هربرت قائلاً :

- من ناحية أخرى فإن صديقنا النافذ الصبر هذا سيمنحنا فرصة لإيضاح أكثر نظم تقسيم الثروة عدالة .

مد يده ، ساعد القادم على الاقتراب .

- ما اسمك؟

- باتريشيو .

- طيب ، يا باتريشيو ، شأن الجميع هنا لديك مشكلة عجزت لبعض الوقت عن حلها .

نزع باتريشيو قبعته ، وأكد الأمر بإيماءة من رأسه .

- ما هي المشكلة؟

قال باتريشيو :

- طيب ، هاهي مشكلتي ، إني مفلس .

- كم تحتاج؟

- ثمانية وأربعون بيزو .

ندت صيحة فوز عن السيد هربرت ، وكرر قائلاً :

- ثمانية وأربعون بيزو .

شاركه الجمهور في التصفيق .

مضى قائلاً :

- عظيم يا باتريشيو ، الآن حدثنا ما الذي يمكنك القيام به؟

- أمور كثيرة .

قال السيد هربرت :

- ليستقر رأيك على شيء واحد ، الشيء الذي تتقنه .

قال باتريشيو :

- طيب ، بمقدوري أن أقلد أصوات الطيور .

صفق السيد هربرت مرة أخرى ، والتفت إلى الجميع :

- هكذا إذن أيها السيدات والسادة فإن صديقنا باتريشيو الذي يبدع في تقليد الطيور سيقلد ثمانية وأربعين طيراً مختلفاً ، وبهذه الطريقة سيحل المشكلة الكبرى في حياته .

عندئذ بدأ باتريشيو في مواجهة صمت الجمهور المندهش يقلد الطيور ، مطلقاً صفيراً في بعض الأحيان أو صوتاً حلقياً ، قلد جميع الطيور المعروفة ، ووصل إلى الرقم المطلوب بتقليد طيور أخرى لم يستطع أحد التعرف عليها ،

وحينما انتهى من التقليد أهاب السيد هربرت بالحاضرين تحيته بالتصفيق ، وقدم له ثمانية وأربعين بيزو .

قال :

– الآن ، هلموا واحداً وراء الآخر ، سأظل هاهنا حتى مثل هذا الوقت من الغد عاكفاً على حل المشكلات .

علم جاكوب العجوز بالجلبة من تعليقات المارين بداره ، ومع كل خبر جديد كان قلبه يتضخم حتى شعر به ينفجر .

تساءل :

– ما رأيك في هذا الجرينجو؟

هز دون مكسيمو جوميز كتفيه قائلاً :

– لا بد أنه من رجال البر والإحسان .

قال جاكوب العجوز :

– لو أن بمقدوري القيام بشيء ما لاستطعت حل مشكلتي الصغيرة فو لست أطلب الكثير ، عشرون بيزو لا غير .

قال دون مكسيمو جوميز :

– إنك تجيد لعب الداما .

لم يبد على جاكوب العجوز أنه قد اهتم بما قاله ، لكنه حينما انفرد لف رقعة الداما وصندوق القطع في صحيفة وخرج يتحدى السيد هربرت . انتصف الليل قبل أن يحل دوره . وفي النهاية جعلهم السيد هربرت يحزمون حقائبه ، وودعهم حتى صباح اليوم التالي .

لم يأو إلى فراشه ، وإنما ظهر في مشرب كاتارينو مع الرجال الذين يحملون حقائبه والجمع الذي تبعه طوال الطريق إلى هناك مثقلاً بمشكلاته . عكف

شيئاً فشيئاً على حل هذه المشكلات وحل الكثير منها حتى لم يعد هناك في المشرب آخر المطاف إلا النسوة وبعض الرجال الذين حلت مشكلاتهم بالفعل . في مؤخرة الغرفة كانت هناك امرأة تجلب لنفسها الهواء بإعلان من ورق مقوى .

صاح بها السيد هربرت :

– ولماذا عنك؟ ما هي مشكلتك؟

توقفت المرأة عن جلب الهواء .

صاحت عبر القاعة :

– لا تحاول إشراكي في لهوك أيها السيد الجرينجو ، فليس لدي أي نوع من المشكلات ، وما احترافي الدعارة إلا جزء من طبيعتي .

هز السيد هربرت كتفيه استهانة ، واصل احتساء جعته الباردة إلى جوار الحقائب المفتوحة منتظراً مشكلات أخرى وقد تحدر العرق على جبينه . بعد قليل انفصلت المرأة عن المجموعة التي تجالسها ، وحدثته بصوت خفيض . كانت تعاني مشكلة تحلها خمسمائة بيزو .

سألها السيد هربرت :

– كيف تكسبين هذا المبلغ؟

– خمسة بيزو لكل رجل .

قال :

– تخيلي هذا! إنه يعني مضاجعة مائة رجل .

قالت :

– لا يهم ، إذا كان بمقدوري جمع هذا المبلغ فسيصبحون آخر مائة رجل في حياتي .

حدجها بنظرة فاحصة ، كانت صغيرة السن ، هشة العظام ، لكن عينيها أفصحتا عن عزم ماض .

قال :

- ليكن ، أمضي إلى غرفتك ، وسأشرع في إرسال الرجال لك ومع كل منهم خمسة بيزو .

مضى إلى الباب المطل على الشارع ، وشرع في قرع جرسه الصغير .

ألفى توبياس مشرب كاتارينو مفتوحاً في السابعة صباحاً ، كانت الأضواء جميعاً مطفأة ، فيما كان السيد هربرت وقد انتفخ من جراء الجعة وأوشك النعاس أن يناله يسيطر على عملية دخول الرجال إلى غرفة الفتاة .

ولج توبياس الغرفة بدوره ، تعرفته الفتاة ، أدهشها أن تراه في غرفتها .

- حتى أنت؟

قال توبياس :

- قالوا لي ادخل ، أعطوني خمسة بيزو ، وطلبوا مني ألا أستغرق وقتاً طويلاً .

نزعت الملاءة المبللة عن الفراش ، وطلبت من توبياس أن يمسك بالطرف الآخر . اعتصراها فيما بينهما ، راحا يلويان أطرافها إلى أن استردت وزنها الطبيعي ثانية . قلبا الحشية على وجهها الآخر فانساب العرق . قام توبياس بالأمر خير قيام ، قبل خروجه وضع ورقة الخمسة بيزو على رزمة الأوراق المالية المتضخمة إلى جوار الفراش .

هز السيد هربرت كتفيه ، أمامه قائلاً :

- ابعث بكل من يمكنك إرسالهم ، دعنا نرى ما إذا كان بوسعنا أن ننهي هذا الأمر قبل الظهيرة .

فرجت الفتاة الباب ، وطلبت قدحاً من الجعة الباردة ، كان هناك العديد من الرجال لا زالوا ينتظرون .

تساءلت :

- كم عدد الباقين؟

رد السيد هربرت :

- ثلاثة وستون .

تبعه جاكوب العجوز طوال النهار برقعة الداما . حل دوره عند المغيب فطرح مشكلته ، وقبل السيد هربرت العرض . وضعا مقعدين ومنضدة صغيرة فوق المائدة الضخمة في منتصف الشارع ، وقام جاكوب العجوز بالنقلة الأولى . كان آخر دور يستطيع السيطرة عليه بذهنه ، فقد خسر .

قال هربرت :

- أربعون بيزو ، وسأتنازل لك عن نقلتين .

ربح مرة أخرى ، بدت يداه كما لو كانت لا تلمسان القطع . لعب مغمض العينين مخمناً نقلات خصمه ، ومع ذلك ربح . سئم الجمع المراقبة حينما قرر جاكوب العجوز الاستسلام كان مديناً بخمسة آلاف وسبعمائة واثنين وأربعين بيزو وثلاثة وعشرين سنتاً .

لم يتغير التعبير المرتسم على ملامحه . دوّن سريعاً الرقم على قطعة ورق كانت في جيبه ثم طوى الرقعة ووضع القطع في صندوقها ، ولف كل شيء في الصحيفة .

قال :

- اصنع بي ما تراه ، لكن دع هذه الأشياء لي . أعِدك بأن أمضي بقية حياتي في الحصول على هذا المبلغ .

ألقى السيد هربرت نظرة على ساعته .

قال :

- أسفي شديد ، سينتهي الوقت الممنوح لك في عشرين دقيقة .

انتظر إلى أن تيقن أن خصمه قد وجد حلاً ، أضاف :

- أليس لديك شيء آخر تقدمه؟

- شرفي .

أوضح السيد هربرت ما يعنيه :

- أعني شيئاً يتغير لونه حين تمر عليه فرشاة مغموسة في الطلاء .

قال جاكوب العجوز كما لو كان يحل لغزاً :

- داري ، إنها لا تساوي الكثير لكنها دار .

على هذا النحو استولى السيد هربرت على دار جاكوب العجوز . كذلك استولى على دور وممتلكات آخرين لم يكن بمقدورهم دفع ديونهم . لكنه دعا الجميع إلى إمضاء أسبوع حافل بالموسيقى والألعاب النارية والألعاب البهلوانية وتولى الإشراف على المهرجانات بنفسه .

كان أسبوعاً لا ينسى ، تحدث السيد هربرت عن قدر البلدة العجائبي ، بل ورسم صورة لبلدة المستقبل . ابنيه بلورية شامخة تعلوها طوابق للرقص . اطلع الجمع عليها ، فنظروا في ذهول محاولين تبين أنفسهم وسط المارة الذين رسموا بألوان السيد هربرت ، لكنهم كانوا من فخامة الملبس بحيث لم يتعرفوا أنفسهم ، المهم أنهم يستغلون كثيراً . ضحكوا من الدافع الذي سيتملكهم للصراخ من جديد في أكتوبر ، وواصلوا العيش في غيمة الأمل حتى قرع السيد هربرت جرسه الصغير ، وقال بأن الحفل قد انتهى . عندئذ فحسب نال قسطاً من الراحة .

قال جاكوب العجوز :

- ستلقى حتفك من جراء نمط الحياة الذي تعيشه .

قال السيد هربرت :

- لديّ الكثير من المال بحيث ينتفي السبب الذي يدعوني للموت .

تهاوى على فراشه ، نام أياماً بكاملها ، مصدراً شخيراً يحاكي زئير أسد . انقضت أيام من الكثرة بحيث ضجر الناس من الانتظار . كان عليهم أن يحضروا بحثاً عن السرطانات لالتهامها . تقادم العهد بأسطوانات كاتارينو إلى حد أنه لم يعد بوسع أحد سماعها دون أن تنهل دموعه واضطر إلى إغلاق المشرب .

بعد وقت طويل من رقاد السيد هربرت ، طرق القس باب جاكوب العجوز . كانت الدار موصدة من الداخل ، ولما كان تنفس الرجل الغافي قد استنفد الهواء ، فقد تلاشى وزن الأشياء وشرعت تطفو في المكان .

قال القس :

- أود أن أتبادل كلمة معه .

قال جاكوب العجوز :

- عليك الانتظار!

- ليس لدى وقت طويل .

كرر جاكوب العجوز قوله :

اجلس يا أبت وحدثني خلال انتظارك ، فقد بعد العهد بيني ومعرفة ما يجري في الدنيا .

قال القس :

- لقد تفرق الناس جميعاً ، ولن يطول الوقت حتى تعود البلدة إلى ما كانت عليه . هذا هو الشيء الوحيد الجديد .

قال جاكوب العجوز :

- سيعودون حينما يفوح البحر برائحة الورود من جديد .

قال القس :

- ولكن علينا في هذه الأثناء أن نغذي أوهام من يمكثون بشيء ما ، لقد غدا أمراً عاجلاً أن نشرع ببناء الكنيسة .

قال جاكوب العجوز :

- لهذا جئت لمقابلة السيد هربرت .

قال القس :

- هذا صحيح ، فالرينجو يحبون أعمال البر للغاية .

قال جاكوب العجوز :

- انتظر قليلاً إذن يا أبت ، فقد يستيقظ من نومه حالاً .

لعبا الداما ، كان دوراً طويلاً وعسيراً استمر عدة أيام ، لكن السيد هربرت لم يستيقظ .

انزلق القس عبر اليأس إلى الحيرة ، راح يجوب البلدة بصحفه نحاسية طالباً التبرعات لبناء الكنيسة ، لكنه لم يحصل على الكثير . تزايدت شفافيته من الإغراق في السؤال . شرعت عظامه تمتلئ بالأصوات ، ذات يوم من أيام الآحاد ارتفع عن الأرض بمقدار قبضتين ، لكن أحداً لم يلحظ الأمر ، ثم حزم ثيابه في حقيبة والمال الذي جمعه في حقيبة أخرى ، وودع البلدة إلى الأبد .

قال لمن حاولوا تثبيط عزمه عن الرحيل :

- لن تعود الرائحة مرة أخرى ، عليكم مواجهة حقيقة أن البلدة قد تهاوت في رحاب خطيئة قاتلة .

حينما استيقظ السيد هربرت ، كانت البلدة كعهدها من قبل ، كان المطر

قد خمّر النفاية التي خلفها الجمع في الطرقات ، والأرض عادت قاحلة وصلدة كالحجارة من جديد .

قال السيد هربرت متثائباً :

- لقد غفوت طويلاً .

قال جاكوب العجوز :

- قروناً .

- إني جائع حتى الموت .

قال جاكوب العجوز :

- كذلك الجميع ، ليس ثمة ما يمكن عمله غير الذهاب إلى الشاطئ والحفر بحثاً عن السرطانات .

ألفاه توبياس يحفر الرمال ، وقد غطى الزبد فمه ، فدهش لاكتشافه أنه حينما يتضور الأغنياء جوعاً فإنهم يشبهون الفقراء تمام الشبه . لم يعثر السيد هربرت على ما يكفي من السرطانات ، وعند المغيب دعا توبياس للغطس إلى أعماق البحر بحثاً عما يؤكل .

حذره توبياس :

- أصغ إلي ، فالموتى وحدهم يعلمون ما الذي يرقد هناك .

قال السيد هربرت :

- والعلماء يعرفون كذلك . تحت بحر الغرقى توجد سلاحف يكسوها لحم رائع . اخلع ثيابك وهيا بنا!

انطلقا . في البداية سبحاً قدماً إلى الأمام ، ثم غاصا عميقاً إلى حيث يتوقف ضوء الشمس ثم نور البحر ، كانت الأشياء تبدو جلية للعيان من خلال نورها المنبعث منها فحسب ، مرا على قرية غارقة يدور فيها الرجال

والنسوة عل صهوات الجياد حول كشك موسيقى . كان يوماً بديعاً ، وكانت هناك زهور وهاجة على الشرفات .

قال السيد هربرتك

- يوم من أيام الآحاد غرق في الحادية عشرة صباحاً ، لابد أن ذلك كان خلال الطوفان .

التفت توبياس إلى القرية ، لكن السيد هربرت أشار له بمواصلة السباحة .

قال توبياس :

- ثمة زهور هناك ، أود لو عرفت كلوتيلدة ، أي زهور هي .

قال السيد هربرت :

- بمقدورك العودة مرة أخرى إن أحببت ، أما الآن فإني أتصور جوعاً .

غاص مثلما أخطبوط بضربات وئيدة منسلة من ذراعيه ، ظن توبياس الذي كان يحاول جاهداً إبقاءه في مجال رؤيته أن تلك حتماً هي طريقة الأثرياء في السباحة . شيئاً فشيئاً غادرا بحر الكوارث المألوفة وولجا بحر الموتى .

كان هناك عدد كبير منهم حتى أن توبياس حدث نفسه بأنه لم ير مثل هذا العدد الهائل من الناس على البر . كانوا يطفون دونما حراك ، ووجوههم إلى أعلى على مستويات مختلفة ، وقد حملوا جميعاً سمات الأرواح المنسية .

قال السيد هربرت :

- لقد تقادم عهدهم بالموت . واقتضى الأمر قروناً ليصلوا إلى حالة السكون هذه .

توقف السيد هربرت بعد المزيد من الغوص في أرض الموتى الجدد ، لحق به توبياس في اللحظة التي مرت بهما امرأة شابه ، كانت تطفو على جانبها ، مفتوحة العينين يتبعها تيار من الزهور .

وضع السيد هربرت إصبعه على شفته ، وأبقاه هناك إلى أن مرت الزهور الأخيرة .

قال :

- إنها أجمل امرأة رأيتها طوال حياتي .

قال توبياس :

- إنها زوجة جاكوب العجوز ، وقد صغرت في العمر خمسين عاماً ، لكنها هي ، وإني لعلي يقين من ذلك .

بلغا القاع ، فقام السيد هربرت بعدة دورات فوق التربة التي بدت كلوح مصقول . تبعه توبياس . وحينما اعتاد ضوء الأعماق نصف المعتم ، اكتشف وجود السلاحف هناك . كانت هناك الآلاف منها ، ترقد مسطحة على القاع . بالغة الجمود إلى حد أنها تبدو متحجرة .

قال السيد هربرت :

- الحياة تدب فيها ، لكنها غفت ملايين السنين .

قلب إحداها ، بلمسة رقيقة دفعها إلى أعلى ، فتركت السلحفاة الغافية يديه ، وواصلت الطفو إلى أعلى . تركها توبياس تمر بجانبه ، ثم تطلع نحو السطح ، ورأى البحر كله مقلوباً رأساً على عقب .

قال :

- يبدو الأمر حلماً .

قال السيد هربرت :

لا تقل لأحد شيئاً عنه لمصلحتك ، ما عليك إلا أن تتصور الاختلال الذي سيسود العالم إذا اكتشف الناس هذه الأمور .

كان الليل قد أوشك على الانتصاف ، حينما عادا إلى البلدة ، أيقظا

كلوتيلدة لتغلي بعض الماء ، قطع السيد هربرت السلحفاة إرباً ، لكن الأمر انقضى جهد ثلاثتهم لدى مطاردة وقتل القلب مرة أخرى ، وهو يتقافز في الفناء بينما هم يمزقون المخلوق إلى أشلاء صغيرة ، أقبلوا على الأكل حتى لم يعد موضع للنفس في جوفهم .

عندئذ قال السيد هربرت :

- طيب ، يا توبياس ، علينا أن نواجه الواقع .

- بالطبع .

مضى السيد هربرت قائلاً :

- والواقع يقول عن الرائحة لن تعود أبداً .

- لسوف تعود .

قاطعت كلوتيلدة الحديث :

- لن تعود لأنها لم تأت حقاً ، كنتم أنتم الذين خدعوا الناس .

قال توبياس :

- لقد شممتها بنفسك .

قالت كلوتيلدة :

- كان الخدر يغالبني تلك الليلة . أما الآن فإني لست على يقين من أي شيء له علاقة بهذا البحر .

- سأمضي في طريقي و . . .

قالها السيد هربرت ، وأضاف موجهاً حديثه إليهما معاً :

- وعليكما بمغادرة البلدة كذلك ، فهناك أشياء كثيرة تنتظركما في الدنيا غير السغب في هذه البلدة .

غادر البلدة ، مكث توبياس في الفناء يحصي النجوم حتى الأ فاكتشف أن هناك ثلاثة نجوم زائدة بالمقارنة بديسمبر ، نادته كلوتيلدة المخدع فلم يكترث بها .

قالت مصرة :

- أقبل ، أيها البليد ، لقد مضت سنوات منذ تضاجعنا على طري الأرانب .

انتظر توبياس طويلاً . وحينما دلف إلى الداخل أخيراً كانت قد أغفـ أيقظها نصف إيقاظ ، لكنها كانت من التعب بحيث اختلطت الأمور عليه فلم يفلحا في التضاجع إلا كديدان الأرض .

قالت متذمرة :

- إنك تتصرف مثل أبله لا عقل له . حاول التفكير في شيء آخر .

- إنني أفكر في شيء آخر .

رغبت في أن تعرف ما هو ، فقرر إخبارها بشرط ألا تكرر ما سيقوله له فوعدته بذلك .

قال :

- هناك قرية في قاع البحر ، فيها دور صغيرة بيضاء ، وملايين الأزهار عل الشرفات .

رفعت كلوتيلدة يديها إلى رأسها .

صاحت :

- أوه ، توبياس ، أوه ، توبياس . ناشدتك الله ألا تعود إلى مثل هذه الأمور! .

لم يضف توبياس شيئاً آخر . تقلب حتى بلغ حافة الفراش . وحاول الخلود للنوم ، لم يفلح في ذلك حتى أطل الفجر ، إذ تغير اتجاه الرياح ، وتركته السرطانات في سلام .

الموت القابع فيما وراء الحب

كان لا يزال أمام السناتور أونيسيمو سانشيز ستة أشهر وأحد عشر يوماً قبل أن يلقي حتفه حينما وجد امرأة عمره . التقاها في روزال ديل فايري ، وهي قرية وهمية ، تغدو في الليل رصيفاً خفياً لسفن المهربين . ومن ناحية أخرى فإنها تبدو في نور النهار شأن معظم الأخوار الموغلة في الصحراء والتي لا جدوى منها تواجه بحراً موحشاً بلا اتجاه وبالغ النأي عن أي شيء حتى أن أحداً لا يشك في أن ثمة هناك من هو قادر بها على تغيير مصير أحد . بل إن اسمها كان ضرباً من الفكاهة ، لأن الوردة الوحيدة هناك كانت تلك التي زين بها السناتور أونيسيمو سانشيز عروة سترته في ذلك الأصيل ذاته ، حينما قابل لورا فارينا .

كانت القرية محطة لا سبيل إلى تجنبها في الانتخابية التي يقوم
بها كل أربع سنوات . كانت العربات المزخرفة ، في الصباح . ثم
أقبلت الشاحنات ، حاملة الهنود الذين يتلقون ر قلون إلى المدن
لتكثيف الجموع في الاحتفالات العامة . وقبل الحادية ل وبصحبة
الموسيقى والصواريخ وعربات الجيب المرافقة له وصلت عربه لونة بلون
صودا الفراولة . جلس السناتور أونيسيمو سانشيز رابط الجأش كس
ملامحه مناخه النفسي داخل العربة المكيفة الهواء. لكنه ما إد اب
حتى هزته لفحه من الصهد ، وغرق قميصه المنسوج من الحرير الح

لون من الحساء الفاتح ، وأحس بأن العمر تقدم به سنوات عديدة ، وازدادت وحشته عن ذي قبل . أما في الواقع فقد بلغ لتوه الثانية والأربعين . تخرج من جامعة جوتنجن بدرجات الشرف كمهندس تعدين . وكان قارئاً نهماً للنصوص اللاتينية سيئة الترجمة ، وإن لم يعد عليه ذلك بكبير نفع . تزوج من امرأة ألمانية باهرة الجمال منحته خمسة أطفال ، كانوا جميعاً سعداء في دارهم ، وكان هو أسعدهم جميعاً إلى أن أبلغوه قبل ثلاثة شهور بأنه موتاً سيموت في عيد الميلاد التالي .

فيما الاستعداد للاجتماع الانتخابي يجري استكماله ، أفلح السناتور في انتزاع ساعة ينفرد فيها بنفسه في الدار التي خصصوها كاستراحة له . وقبل أن يستلقي وضع في كوب من ماء الشرب الوردة التي أبقى على حياتها طوال الطريق عبر الصحراء ، تناول طعاماً من النشويات التي يحملها معه لتجنب شرائح لحم الماعز المكرورة التي تنتظره طوال ما بقي من اليوم ، وابتلع العديد من الحبوب المهدئة للألم قبل الموعد المحدد لها في التذكرة الطبية ليكون قد تناول العلاج قبل أن يشعر بالألم . ثم وضع المروحة الكهربائية قرب أرجوحة النوم ، وتمدد عارياً لمدة خمس عشرة دقيقة في ظل الوردة ، باذلاً جهداً هائلاً في إلهاء نفسه حتى لا يفكر في الموت وهو يوشك على الإغفاء . لم يكن ثمة من يعلم ، باستثناء الأطباء ، أن أجله قد دنا ، إذ قرر أن يحمل وقر سره وحيداً ، دون أن يغير شيئاً في حياته ، لا بسبب الكبرياء ، وإنما خجلاً من مواجهة الآخرين .

أحس بأنه يسيطر تمام السيطرة على إرادته حينما ظهر أمام الجمهور مرة أخرى في الثالثة من بعد الظهر ، وقد بدا مرتاحاً متألقاً يرتدي سراويل من الكتان الخشن وقميصاً مرقشاً بالزهور المطبوعة ، وقد ساعدته الحبوب المهدئة على أن يبدو منشرحاً . ورغم ذلك فإن التآكل الذي يعجل به الموت كان أكثر ضراوة مما ظن ، إذ فيما كان يمضي صاعداً إلى المنصة أحس بنفور غريب نحو أولئك الذين يقتتلون لعل الحظ الطيب يساعدهم على مصافحته . لم يشعر

بالأسف كما حدث له في مرات أخرى لجماعات الهنود الحفاة الذين ما كان بوسعهم احتمال جمرات الصخر الملحي التي تشكل أرض الميدان الصغير الموحش . أسكت التصفيق بتلويحة من يده توشك أن تنقلب حنقاً ، وشرع في الحديث دون أن يشير بيده ، وعيناه ثابتتان على البحر الذي كان يتنهد بحرارة . كانت لصوته المحسوب الرنين والعميق الجرس طبيعة الماء الهادئ ، لكن الخطاب الذي حفظه عن ظهر قلب وطحنه تذكراً لم يرد على ذهنه باعتباره ذكراً للحقيقة ، وإنما بحسبانه نقيض الطرح القدري الوارد في الكتاب الرابع من مؤلف ماركوس أوريليوس بعنوان (تأملات) .

شرع يقول مناقضاً كل القناعات : (إننا هنا من أجل إيقاع الهزيمة بالطبيعة . لن نكون لقطاء في بلادنا ، يتامى الرب في أرض الظمأ والمناخ الضاري ، منفيين على أرضنا ، سنكون شعباً مختلفاً ، أيها السيدات والسادة ، سنكون شعباً عظيماً سعيداً) .

كان هناك أسلوب عمل في سيركه ، ففيما كان يتحدث راح مساعدوه يلقون ملء قبضات من الطيور الورقية في الهواء ، فتتلبس الحياة المخلوقات الصناعية ، وتحلق حول المنصة المقامة من الألواح الخشبية ، وتنطلق نحو البحر . وفي الوقت نفسه حمل آخرون بعض الهياكل التي تمثل الأشجار ، وقد تدلت منها أوراق وهمية من العربات ، وثبتوها في الأرض الصخرية وراء الحشد ، واختتموا جهودهم بنصب واجهة من الورق المقوى تمثل دوراً وهمية من الطوب الأحمر ذات نوافذ زجاجية وغطوا بها الألواح البائسة الواقعية .

أطال السناتور خطابه بمقتطفين باللغة اللاتينية ليتيح للمهزلة وقتاً أطول . وعد بآلات لجلب المطر وبأجهزة تفريخ نقالة للدواجن وبزيوت السعادة التي تجعل الخضر تنمو في الصخر الملحي وباقات البانسيه تزدهر في صناديق النوافذ . حينما رأى أن عالمه الوهمي قد نصب أشار إليه صائحاً .

– هذا هو ما سيكون عليه عالمنا ، أيها السيدات والسادة ، انظروا هذا هو ما سيكون عليه عالمنا .

التفت الجمهور . كانت عابرة محيط مصنوعة من الورق الملون تمر خلف الدور ، وكانت أكثر ارتفاعاً من أعلى الدور في المدينة الصناعية . وحده السناتور لاحظ أن المدينة الكرتونية المتعالية قد شرعت في التآكل جراء الطقس المخيف وبسبب إقامتها ونزعها وحملها من مكان إلى آخر وأنها كانت بائسة وغارقة في الغبار شأن روزال ديل فايري أو تكاد .

لأول مرة طوال اثني عشر عاماً ، لم يذهب نيلسون فارينا لتحية السناتور . أصغى للخطاب من أرجوحة نومه ، ولما يفق بعد من آثار قيلولته تحت التعريشة الباردة لدار من ألواح الخشب غير المصقولة شادها بيدي الصيدلي ذاتهما اللتين جرّ بهما زوجته الأولى وقطعها إلى أربع أجزاء . كان قد هرب من معتقل جزيرة الشيطان وظهر في روزال ديل فايري على متن سفينة محملة بالببغاوات البريئة ذات الذيول الطويلة مع امرأة زنجية مجدفة عثر عليها في باراماريبو فأنجبت له ابنة . وقد لقيت المرأة حتفها لأسباب طبيعية في وقت لاحق ، ولم تلق مصير الزوجة الأخرى التي خصّبت أشلاؤها حوض زهورها ، وإنما دفنت بكامل أعضائها مع اسمها الهولندي في مقبرة القرية . وورثت ابنتها لونها وقوامها مع عيني أبيها العسليتين المندهشتين ، وكان هناك ما يبرر اعتقاده بأنه يربي أجمل امرأة في العالم .

منذ التقى بالسناتور أونيسيمو سانشيز خلال حملته الانتخابية الأولى استعطفه أن يساعده في الحصول على بطاقة هوية مزورة تجعله بعيداً عن يد القانون . وقد رفض السناتور بطريقة ودية وإن كانت حازمة . ولم يستسلم قط لليأس . ولسنوات طويلة ، وفي كل مرة يجد الفرصة سانحة كان يكرر طلبه في سياق مختلف . لكنه في هذه المرة ظل في أرجوحة رقاده وقد حكم عليه بأن يتعفن حياً في وكر القراصنة المتقد بالصهد ذاك . حينما سمع التصفيق الختامي ، رفع رأسه ، وتطلع فوق ألواح السياج ، فلمح الملمح الخلفي للمهزلة ، هياكل المباني ، أطر الأشجار ، صناع الأوهام المختفين الذين راحوا يدفعون بعبارة المحيط قدماً ، فبصق دونما حقد .

قال :

- هذا هو (بلاكامان) السياسة [1]

عقب الخطاب ، وكما جرت العادة ، قام السناتور بجولة عبر شوارع البلدة وسط عزف الموسيقى وإطلاق الصواريخ ، وقد حاصره أبناؤها الذين راحوا يحدثونه بمشكلاتهم . أصغى إليهم بصدر رحب ، ونجح على الدوام في أن يجد سبيلاً لإرضاء الجميع دون أن يسدي لهم جميلاً يتعذر الاضطلاع به . أفلحت امرأة تقف على سطح إحدى الدور مع أصغر ستة من أطفالها في جعل صوتها مسموعاً فوق دوى الألعاب النارية .

قالت :

- لا أطلب الكثير أيها السناتور ، مجرد حمار أنقل عليه الماء من بئر المشنوق .

لاحظ السناتور الأطفال الناحلين ، فتساءل :

- ماذا صار من أمر زوجك؟

ردت المرأة بمرح قائلة :

- ذهب يجرب حظه في جزيرة أروبا ، فلم يعثر إلا على أجنبية من النوع الذي يضع ماسات في أسنانه .

جلب الرد عاصفة من الضحك .

حسم السناتور الأمر :

- ليكن ، ستحصلين على حمارك .

(1) بلاكامان : بطل القصة القصيرة التي تحمل عنوان «بلاكامان الطيب بائع المعجزات» وقد نشرت بالعربية ضمن مجموعة «الرحلة الأخيرة للسفينة الشبح» لماركيز من ترجمتنا . ويبدو بلاكامان رمزا للمحتال الداهية الذي يضرب في أنحاء العالم الثالث دون أن يتردد لحظة في بيع جلد أبيه إن حقق ذلك صالحه الخاص (هـ.م .) .

بعد قليل أحضر أحد مساعديه حماراً جيداً للحمل إلى دار المرأة ، وق كُتب شعار انتخابي على كفله بطلاء لا يمحى حتى لا ينسى أحد أنه كا هدية من السناتور .

على امتداد الطريق القصير قدم مساهمات أخرى أصغر من تلك ، وقدم ملء ملعقة من الدواء لمريض طلب إحضار فراشه إلى باب دار ليتمك من مشاهدته لدى مروره . عند المنعطف الأخير وعبر ألواح السياج رأى نيلس غارقاً في أرجوحة نومه ، وقد بدا مكفهراً مكتئباً ، ومع ذلك فقد حياه وإن ل يبالغ في إظهار الود .

- مرحبا ، كيف حالك؟

تقلب نيلسون غارقاً في أرجوحته ، وأغرقه في الكهرمان الحزين لنظرته .

قال :

- إني أحييك .

خرجت ابنته إلى الفناء حينما سمعت التحية . كانت ترتدي رداء رخيص حائل اللون مما ترتديه نساء هنود الجواجيرو ،وقد زينت رأسها بأقواس ملونة . وطلت وجهها لتحميه من الشمس . ولكن حتى في هذه الحالة البائسة كان من السهل تخيل أن العالم لم يسبق أن عرف لجمالها نظيراً . صعق السناتور ، خرجت الكلمات مذهولة مع نفسه :

- اللعنة! الرب يأتي أكثر الأمور جنوناً!

في تلك الليلة جعل نيلسون فارينا ابنته ترتدي أفضل ملابسها وبعث بها إلى السناتور . أمرها حارسان مسلحان بالبنادق كان النعاس يناوشهما من فرط الحر في الدار المستعارة بالانتظار على المقعد الوحيد في الدهليز .

كان السناتور في الغرفة المجاورة يعقد اجتماعاً مع الشخصيات ذات الحيثية في روزال دبل فايري التي جمعها ليرتل على مسامعهما الحقائق التي أسقطها

من خطابه . بدا أصحابها تماماً كغيرهم ممن يلقاهم دوماً في مدن الصحراء حتى أن السناتور نفسه أصابه السأم والإعياء من تلك الجلسة الليلية التي تبدو بلا نهاية . كان العرق قد بلل قميصه ، وراح يحاول تجفيفه على بدنه بالنسيم الساخن المنبعث من المروحة الكهربائية التي راحت تطن كأنها ذبابة الجياد في حر الغرفة اللاهب .

قال :

- إننا بالطبع لا نستطيع التهام العصافير الورقية ، وأنتم وأنا نعرف أنه يوم تكون هناك أشجار وأزهار في كوم روث الأغنام هذا ، في اليوم الذي تكون هناك فيه أسماك شابل بدلاً من الديدان في الينابيع ، في ذلك اليوم لن يكون لكم ولا لي ما نصنعه هنا . هل حديثي واضح؟

- لم يحر أحد جواباً . خلال حديث السناتور مزق ورقة من التقويم ، وصنع منها فراشة ورقية بيديه ، ألقى بها دون هدف محدد في تيار الهواء المنبعث من المروحة فدومت الفراشة في الغرفة ثم خرجت عبر فرجة الباب . واصل السناتور حديثه في تحكم يساعده تواطؤ الموت .

قال :

- من ثم لا يتعين عليّ أن أكرر على مسامعكم ما تعرفونه حق المعرفة : إن انتخابي من جديد هو صفقة رابحة لكم أكثر مما هي رابحة لي ، لأنني سئمت الماء الراكد والعرق الهندي ، فيما أنتم أيها القوم تستمدون حياتكم منه .

رأت لورا فارينا الفراشة الورقية تخرج من الباب .

كانت هي وحدها التي لمحتها لأن الحراس الواقفين في البهو كانوا يغطون في النوم على الدرج معتنقين بنادقهم . وإن هي إلا دورات قليلة حتى تفككت الفراشة المصطنعة تماماً وتسطحت على الحائط وظلت ملتصقة به . حاولت لورا فارينا انتزاعها بأظافرها . لاح أحد الحراس ، وكان قد استيقظ على دوي التصفيق المنبعث من الغرفة المجاورة ، محاولتها التي لم تكلل بالنجاح .

قال بصوت ناعس :

- لا جدوى من محاولة انتزاعها ، فهي مرسومة على الجدار .

كانت قد عادت إلى جلستها من جديد حينما بدأ الرجال في الخروج من الاجتماع . وقف السناتور في مدخل الغرفة ويده على المزلاج ، ولم يلحظ لو فارينا إلا بعد أن أصبح البهو خالياً .

- ماذا تفعلين هنا؟

- هذا أمر أبي .

أدرك السناتور الأمر . حدج الحراس الغافلين ثم حدج لورا فارينا التي كان جمالها الخارق أكثر إلحاحاً حتى من الألم الذي يعانيه ، عندئذٍ وصل إلى أن الموت هو الذي اتخذ القرار نيابة عنه .

قال لها :

- تفضّلي!

وقفت مذهولة عند مدخل الغرفة : كانت آلاف الأوراق المالية تسبح في الهواء مصدرة أصواتاً كأجنحة الفراشات ، لكن السناتور أوقف المروحة ، فبقيت الأوراق دون هواء ، وتهاوت على أثاث الغرفة .

قال مبتسماً :

- كما ترين ، فإن النفاية يمكن أن تطير .

جلست لورا فارينا على مقعد مرتفع كالذي يقتعده التلاميذ . كانت بشرتها ناعمة خالية من التجاعيد تحمل اللون ذاته والزخم الشمسي عينه الذي للزيت الخام ، وشعرها عرف مهرة فتية ، وعيناها النجلاوان أكثر التماعاً من النور . تتبع السانتور خيط بصرها فوصل أخيراً إلى الوردة التي كان الملح الصخري قد أفقدها نضارتها .

قالت :

- إنها وردة .

قال وفي صوته مسحة من الحيرة .

- نعم ، لقد تعلمت معنى الورود في ريو هاشا .

جلس على فراش من أسرة الجيش ، ومضى يتحدث عن الورود ، فيما كان يفك أزار قميصه . في الجانب الذي تخيل أن قلبه موجود بداخله من صدره كان هناك وشم قرصان ، يمثل قلباً يخترقه سهم . ألقى بالقميص المبلل بالعرق أرضاً وطلب من فلورا فارينا أن تساعد في خلع حذائه ذي الرقبة الطويلة .

انحنت مواجهة الفراش . واصل السناتور اعتصارها بنظرته غارقاً في التفكير ، وفيما كانت تفك الأربطة تساءل أيهما سينتهي بسوء الحظ الكامن في تلك المواجهة .

قال :

- لست إلا طفلة بعد .

قالت :

- لا تصدق هذا ، فسأبلغ التاسعة عشرة في إبريل المقبل .

ثار اهتمام السناتور .

- في أي يوم؟

قالت :

- الحادي عشر .

شعر السناتور بتحسن ، فقال :

- كلانا ، من برج الحمل .

أضاف مبتسماً :

- هذا رمز العزلة .

لم تكن لورا فارينا مصغية لما يقول ؛ إذ حارت فيما تصنعه بالحذاء . أما السناتور فلم يدر بدوره ما يصنعه بها لأنه لم يعتد المغامرات العاطفية المفاجئة ، فضلاً عن ذلك فقد كان يعرف أن المغامرة التي يواجهها تضرب جذورها في سوء المعاملة . أمسك لورا بإحكام بين فخذيه ليكسب وقتاً للتفكير . خاصرها واضطجع على الفراش . عندئذ أدرك أنها عارية تحت ردائها ، إذ ضاع جسدها ، بالعبق المعتم لحيوان مطلق السراح في الغابات . لكن قلبها كان غارقاً في الخوف وبشرته يرقشها عرق بلوري .

تنهد قائلاً :

- ما من أحد يحبنا .

حاولت أن تقول شيئاً ، لكن الهواء ضاق إلا عن التنفس . أرقدها إلى جواره ليساعدها . أطفأ النور فسبحت الغرفة في ظل الوردة ، تخلت عنها لملائكة رحمة قدرتها . لاطفها السناتور وئيداً ساعياً إلى أعمق أعماقها بيده في مس شديد الرهافة . لكن حيث توقع أن يجدها صادف شيئاً حديدياً يعترض الطريق .

- ما هذا الذي تضعينه هناك .

قالت :

- قفل .

- ماذا بحق الجحيم!

قالها السناتور متميزاً من الغيظ ، وسأل عما كان يعلمه علم اليقين :

- أين المفتاح؟

تنهدت تنهيدة ارتياح .

ردت قائلة .

- مع أبي ، فقد قال لي أن أطلب منه إرسال أحد رجالك للحصول عليه وأن ترسل معه وعداً كتابياً بأنك ستسوي موقفه .

ازداد توتر السناتور ، غمغم حانقاً :

- يا للضفدع ابن الحرام!

ثم أغمض عينيه لتتراخى أعصابه ، وقابل نفسه في الظلمة ، راح يتذكر : أنه إذا حدث ذلك على يديك ، أو على يدي آخر فلن يطول بك الأمر قبل أن تلقي حتفك ، ولن يطول المدى قبل أن يغدو اسمك نسياً منسياً .

انتظر حتى غادرت الرجفة التي ألمت به .

عندئذ تساءل :

- حدثيني بأمر واحد : ما الذي سمعته عني؟

- أتريد الحق الصراح؟

- الحق الصراح .

غامرت لورا فارينا بقولها :

- طيب . يقولون إنك أسوأ من الباقين لأنك مختلف عنهم .

لم يشعر السناتور بالضيق . لزم الصمت طويلاً مغمض العينين ، وحينما عاود فتحهما بدا كما لو كان قد عاد من رحاب أكثر غرائزه خفاء .

حسم أمره ، فقال :

- ماذا بحق الجحيم ، قولي لأبيك ابن الكلبة أني سأسوي موقفه .

قالت :

- بمقدوري إذا أردت أن أمضي لإحضار المفتاح بنفسي .

أمسك بها السناتور فأعادها إلى موضعها .

قال :

- دعي عنك أمر المفتاح ، وارقدي برقة معي ، فما أحلى أن تكوني مع أحد حين تشعرين بوطأة الوحدة .

ثم وسد رأسه كتفها وعيناه مثبتتان على الوردة . أمسك بخصرها . دفن وجهه تحت إبطها الضائع بعرف حيوان مطلق السراح في الغابات ، واستسلم للرعب . بعد ستة أشهر وأحد عشر يوماً سيلقى حتفه في ذلك الوضع ذاته مهاناً ومحتقراً جراء الفضيحة مع لورا فارينا على رؤوس الأشهاد وغارقاً في دمع الغضب لاحتضاره بدونها .

الاستسلام الثالث

انبعث ذلك الضجيج مرة أخرى . ذلك الضجيج البارد ، القاطع ، الرأسي الذي أصبح يعرفه خير المعرفة . لكنه يعاوده الآن حاداً مؤلماً كأنما لم يعتده طوال الليل .

كان يدور حول نفسه داخل رأسه الخاوية ، موحشاً ، قارضاً . علا صوت خلية نحل متصاعداً داخل جدران جمجمته الأربعة . تعاظم متصاعداً في دورات لولبية متوالية . لدغ دواخله جاعلاً ساق حبله الشوكي ترتجف في اهتزازات غير منظمة ، ترفض الاتساق مع الإيقاع اليقيني لجسمه . ثمة شيء ما أصابه الخلل في هيكل بدنه البشري ، شيء كان يؤدي وظيفته بصورة عادية «في أوقات أخرى» وراح الآن يقرع رأسه من الداخل بلطمات جافة قاسية توقعها عظام يد هيكلية خلت من اللحم ، فجعله يتذكر كل الأحاسيس المريرة التي عاشها في حياته ، داهمه دافع حيواني يستحثه أن يطبق قبضتيه ويعتصر صدغيه اللذين نفرت منهما العروق زرقاء وحمراء مع الضغط الحازم لألمه الموجع . كان يمكن أن يود الإمساك بالضجيج الذي يخترق اللحظة بطرفه الماسي الحاد بين راحتي يديه الحساستين . جعل شبح قطة بلدية عضلاته تنقبض حينما تصورها تنطلق مسرعة عبر الأركان المعذبة لرأسه الساخن المحموم . الآن سيقتنصها . كلا . كان للضجيج فراء زلق تعجز اليد على وجه التقريب عن لمسه ، لكنه تأهب لاقتناصه بأسلوبه الذي أتقنه ،

وللإمساك به طويلاً وفي إحكام وبكل القوة النابعة من شعوره باليأس . لن يسمح له بأن يلج أذنه مرة أخرى ، أن يخرج عبر فمه ، عبر كل من بؤبؤي عينيه اللتين تقلبتا فيما هو يخترقهما وبقيتا عاجزتين عن الإبصار متطلعتين الى هرب الضجيج من أعماق الظلمة الممزقة . لن يسمح له بأن يجز بلورات التي تشطر الزجاج شطراً ، نجومها الثلجية ، في مواجهة الجدار الداخلي لجمجمته . هكذا كان ذلك الضجيج : متداخلاً ، مثلما طفل ينطح برأسه جداراً من الإسمنت . شأن كل الضربات القاسية التي ترتطم بما هو صلب في الطبيعة . ولكن لو أنه استطاع الالتفاف حوله وعزله لما واصل تعذيبه . امض واقطع الشبح المتراقص من ظلاله! أمسك به! اعتصره! نعم ، مرة وللأبد الآن . ألقى به على الرصيف بكل قوته ، وداسه بضراوة إلى أن استطاع القول بأنه قتل الضجيج الذي كان يعذبه ، الذي كان يدفعه نحو الجنون ، والذي تمدد الآن على الأرض كأي شيء عادي تحول إلى عدم كلي .

غير أنه كان من المستحيل عليه أن يعتصر صدغيه . فقد قصر ذراعاه بالنسبة لطوله ، وأصبحا الآن طرفا قزم ، ذراعين صغيرين ، لحيمين ، دهنيين حاول أن يهز رأسه . اجترح ذلك . عندئذ ظهر الضجيج بقوة أعظم داخل جمجمته التي تصلبت ، تضخمت ، أحس بها تشد بقوة أكبر بفعل الجاذبية الأرضية . كان الضجيج ثقيلاً ، صلباً . شديد الثقل والصلابة إلى حد أنه إن يمسك به ويدمره حتى يحس أنه انتزع تويجات زهرة من رصاص .

كان قد سمع الضجيج بالإلحاح ذاته «في أوقات أخرى» . سمعه ، على سبيل المثال ، في اليوم الذي مات فيه لأول مرة . في الوقت الذي – حينما رأى الجثة – أدرك فيه أنها جثته . نظر إليها ، لمسها ، أحس بنفسه كائناً لا يمس ، لا يحتل شيئاً من الفراغ ، ولا وجود له . كان جثة حقاً وكان بوسعه أن يحس بمسرى الموت في جسده الشاب الذي ركبه المرض . اكتسب المناخ في أنحاء الدار كافة تصلباً كما لو كان قد امتلأ بالإسمنت . وفي منتصف تلك الكتلة الصماء– حيث ظلت الأشياء على حالها حينما كانت انسياباً من

هواء– كان هو موضوعاً بعناية داخل تابوت من الإسمنت المتصلب وإن كان مع ذلك شفافاً . «ذلك الضجيج» كان يدوي في رأسه في تلك المرة كذلك . لشد ما أحس ببعد وبرودة أخمص قدمه عند الطرف الآخر من التابوت ، حيث وضعوا وسادة لأن الصندوق كان لا يزال كبيراً بالنسبة له ، فاضطروا إلى المواءمة بينهما وتهيئة الجثة لزيها الجديد والأخير . لفوا حول فكه منديلاً أبيض أتقن كيه ، فبدا بديعاً على نحو قاتل .

كان في تابوت معداً للدفن ، ورغماً عن ذلك كان يعلم أنه ليس ميتاً وأنه إذا حاول النهوض فسيكون بوسعه القيام بذلك في يسر على الأقل «روحياً» . لكن الأمر لم يكن جديراً بهذا العناء . كان من الخير له أن يترك نفسه يلقى حتفه فوراً ، يلقى حتفه جراء الموت الذي كان مرضه . لم يكن العهد قد بعد بذلك الوقت الذي قال الطبيب فيه لأمه بلهجة جافة :

«سيدتي ، ولدك مصاب بمرض خطير : إنه ميت . ورغم ذلك» توقف قليلاً ثم أضاف :«سنقوم في كل ما في وسعنا للإبقاء على حياته وراء تخوم الموت . سنفلح في جعل وظائفه العضوية تستمر من خلال نظام معقد للتغذية الذاتية . وحدها الوظائف الحركية ستكون مختلفة ، أعني حركاته التلقائية . وسنراقب حياته عبر مراحل النمو الذي سيستمر بدوره بصورة عادية . إنه «موت حي» . موت حقيقي وصحيح .

تذكر الكلمات ، وإن كان ذلك على نحو مرتبك . ربما لم يكن قد سمعها قط ، وإنما كانت من بنات أفكاره مع ارتفاع درجة حرارته خلال أزمة حمى التيفوئيد .

حينما كان يغوص في قرار الهذيان ، وعندما انتهى من قراءة أقاصيص حول الفراعنة المحنطين ، وفيما الحمى تعاوده أحس بنفسه بطلاً للرواية . هنالك بدأ نوع من الخواء في حياته . منذ ذلك الوقت فصاعداً عجز عن تبين وتذكر أي الأحداث كانت جزءاً من الهذيان وأيها من حياته الواقعية . ذلك

كان السر في الشك الذي يداهمه الآن . ربما لم يأت الطبيب قط على ذكر ذلك «الموت الحي» الغريب . كان أمراً مفارقاً للمنطق ، محيراً ، ومتناقضاً ، وها هو يجعله الآن يتشكك فيما إذا كان ميتاً الآن حقاً وما إذا كان موجوداً طوال ثمانية عشر عاماً .

في ذلك الوقت- أي لدى عاته وحينما كان في السابعة من عمره- أمرت أمه بأن يصنع له تابوت صغير من الخشب الأخضر ، تابوت طفل ، لكن الطبيب أمرهم بصنع صندوق لإنسان عادي في عمر النضج ، لأن ذلك التابوت هناك قد يعيق النمو فيتحول إلى شخص ميت مشوه أو إلى شخص حتى غير عادي . وإزاء ذلك التحذير أمرت أمه بأن يُصنع له تابوت كبير ، تابوت يناسب جثة إنسان ناضج . ووضعت فيه ثلاث وسائد عند قدميه ليناسبه تماماً .

سرعان ما بدأ ينمو داخل الصندوق على نحو كانوا يزيلون معه بعض الصوف من الوسادة الأخيرة ليفسحوا المجال للنمو . وعلى هذا النحو أنفق نصف عمره . ثمانية عشر عاماً (بلغ الآن الخامسة والعشرين) ووصل إلى طول العادي المحدد . كان الطبيب والنجار قد خانهما الحظ في تقديراتهما فجعلا التابوت أطول بمقدار قدمين . كان قد ظن أنه سيتمتع بقامة أبيه . الذي كان عملاقاً يوشك أن يكون وحشي البدن . لكن الأمر لم يجر على ما قدرا ، فقد كان الشيء الوحيد الذي ورثه عنه هو لحيته الكثة . لحية كثة فاحمة السواد اعتادت أمه أن ترجلها لتضفي عليه مظهراً أكثر رقة في تابوته . كانت تلك اللحية تبعث ضيقه بصورة مروعة في الأيام الحارة .

غير أن ثمة ما كان يقض مضجعه على نحو يفوق «الضجيج»! ألا وهو الفئران ، وحتى حين كان طفلاً لم يكن هناك مكان يثير قلقه أو يبعث في نفسه الرعب أكثر من الفئران . وقد كانت هذه الحيوانات المقززة بالذات هي التي تجتذبها رائحة الشموع الموقدة عند قدميه . كانت قد قرضت بالفعل

ملابسه ، وعرف أنها سرعان ما تشرع في قرضه ملتهمة جسده . ذات يوم تمكن من مشاهدتها ، كانت خمسة فئران براقة ملساء تسلقت إلى الصندوق عن طريق قائم المائدة ، وراحت تلتهمه . لن يكون قد بقي منه شيء حين تلحظ أمه الأمر اللهم إلا عظامه المهمشة ، الصلبة ، الباردة . لم يكن ما أفزعه على وجه الدقة هو أن الفئران ستلتهمه ، وإنما عذبة الفزع الغريزي الذي استشعره نحو تلك الحيوانات الصغيرة . وقف شعر رأسه وهو يفكر في هذه المخلوقات المَلْساء التي تجري فوق جسده ، تمس طيات جلده ، تمسح شفتيه بمخالبها الثلجية . صعد أحدها إلى جفونه وحاول قرص قرنيته . رآه ، ضخماً مخيفاً وهو يحاول اختراق شبكية عينيه . ظن أنه موت جديد ، استسلم تماماً للدوار الداهم .

تذكر أنه قد بلغ سن المراهقة . كان في الخامسة والعشرين ، ذلك كان يعني أنه لن ينمو بعد ذلك . ستغدو ملامحه حازمة جادة . لكنه في تمام صحته ما كان ليستطيع الحديث عن طفولة ، إذ أمضاها ميتاً .

عكفت أمه على رعايته فيما بين الطفولة والمراهقة ، إذ كانت حالة التابوت والغرفة بكاملها تؤرقها . كانت تبدل الزهور في الأواني معظم الوقت ، وتفتح النوافذ كل يوم ليدخل الهواء الطلق الغرفة . وبغبطة تتفقد سجل القياس في تلك الأيام ، لتؤكد له بعد قياس طوله أنه قد طال عدة سنتيمترات . كانت تستشعر غبطة أم حينما تراه والحياة تدب في عروقه . ومع ذلك فقد حرصت على تجنب وجود الغرباء في الدار . ففي النهاية لم يكن وجود الجثة بدار العائلة عبر سنوات طويلة بالأمر المقبول ، وكان الغموض يلفه . ظلت دائبة على إنكار ذاتها . لكن تفاؤلها سرعان ما بدأ يتقلص . وخلال السنوات الأخيرة كان يراها تنظر إلى سجل القياس في حزن ، فلم يعد طفلها ينمو . وطوال الشهور الأخيرة لم يضطر إلى نموه مليمتراً واحداً . أدركت أنه سيكون من المتعذر رصد وجود الحياة في الجثة الحبيبة الأثيرة لديها . داهمها الخوف من أنها ذات صباح ستجده ميتاً «حقاً» وربما لهذا السبب أمكنه من اليوم

المذكور أن يلحظ أنها دنت من صندوقه خلسة وتشممت جسده . هوت في قرار أزمة تشاؤم . كانت قد أهملت في الآونة الأخيرة ما دأبت على الاهتمام به ولم تعد تحرص على حمل المقياس ، إذ كانت تعرف أنه لن ينمو .

أدرك الآن أنه ميت «حقاً» ، عرف ذلك بسبب ذلك الهدوء الرقيق الذي تركت أعضاؤه ذاتها تنساب به . لقد تغير كل شيء في غير أوانه . اختفت الدفقات غير المحسوسة التي كان يستشعرها وحده من نبضه . أحس بالتثاقل وبأن قوة خفية ملحاحة تجتذبه نحو مادة الأرض البدائية . بدت قوة الجاذبية الأرضية كما لو كانت تجتذبه بقوة لا سبيل لإيقافها . كان ثقيلاً مثلما جثة إيجابية الحضور لا سبيل لإنكار وجودها . لكن ذلك كان أدعى للشعور بالراحة ، فلم يكن عليه أن يتنفس لكي يحيا موته .

راح يتلمس أعضاءه واحداً وراء الآخر متخيلاً إياها ودون أن يمسها . هنالك على وسادة صلبة كانت رأسه ، ملتفتة قليلاً نحو اليسار . تخيل فمه مفتوح قليلاً بسبب البرد الذي يملأ حلقه بفيض من الرطوبة . كان قد اجتث مثلما شجرة في الخامسة والعشرين من عمرها . ربما كان قد حاول أن يطبق فمه كان المنديل الملتف حول فكه مفكوكاً ، عجز أن يعيد نفسه إلى موضعها ، أو يتحكم فيها ، وحتى أن يتخذ مظهر جثة رقيقة . لم تعد عضلاته وأعضاؤه تطاوعه كذي قبل خاضعة لنداء النظام العصبي . لم يعد ما كان عليه قبل ثماني عشر عاماً ، طفلاً عادياً يمكن أن يتحرك حسبما يشاء . أحس بذراعيه المتهاويتين هامدتين إلى الأبد وقد انحشرا في جانبي التابوت . تصلبت معدته مثل لحاء شجر الجوز . وبعيداً امتدت ساقاه متماسكتين ، منضبطتين تكملان كيانه التشريحي الناضج ، رقد جسده ثقيلاً وإن كان يغمره السلام دون أن يخالجه عدم ارتياح أياً كان نوعه ، تماماً كما لو كان العالم قد توقف فجأة ولم يحطم أحد جدران الصمت ، كما لو أن كل رئات الأرض قد كفت عن التنفس حتى لا تخدش صمت الهواء الرقيق . أحس بسعادة طفل يضطجع على العشب الكثيف البارد متأملاً سحابة تنطلق بعيداً في سماء الأصيل

كان سعيداً رغم أنه يعرف أنه ميت وأنه سيرقد الى الأبد في الصندوق يلفه الحرير الصناعي . بدت الأمور جلية تماماً أمامه . لم يكن الأمر كذي قبل عقب موته الأول الذي شعر فيه بالاكتئاب وفتور المهمة . بدأت الشموع الأربعة التي وضعوها حوله ، والتي كانت تبدل كل ثلاثة شهور ، تذوي في الوقت الذي ستغدو مما لا يستغنى عنه . أحس بقرب زهور الأقحوان اليانعة الندي التي جلبتها أمه هذا الصباح . أحس بالأمر عينه بالنسبة للسوسنات وللورود . لكن هذا الواقع المخيف بأسره لم يثر فيه أي شعور بالقلق ، بل على العكس تماماً ، كان سعيداً هنالك ، وحيداً في عزلته . ترى هل يداهمه الشعور بالخوف فيما بعد؟

من يدري؟ كان من العسير التفكير في اللحظة التي ستهوي فيها المطرقة على المسامير فتدفع بها في الخشب الأخضر ويقرقع التابوت تحت وقر أمله اليقيني في أن يغدو شجرة من جديد . سيظل جسده الذي تجتذبه إمرة الأرض الآن بقوة أعظم مغطى بغور رطب شبه صلصالي وهنالك عالياً ، فوقه بأربع ياردات ستشرع في الخفوت ضربات حفاري القبر الأخيرة . كلا . لن يشعر الخوف هنالك أيضاً . سيكون ذلك إطالة لأمد موته . الإطالة الطبيعية تماماً لحالته الجديدة .

لن تبقى درجة الحرارة واحدة في جسده . سيكون نخاعه قد تجمد للأبد وستضرب نجوم جليدية صغيرة عميقاً حتى نخاع عظامه . ما أجمل النحو الذي سيعتاد به حياته الجديدة كرجل ميت! غير أنه ذات يوم سيشعر بدرعه الصلب يتهاوى ، وحينما يحاول أن يسمي وأن يستعرض كل عضو من أعضائه لن يجدها . لسوف يحس بأنه ليس له صورة دقيقة محددة وسيتعرف باستلام أنه فقد كيانه التشريحي الكامل البالغ خمسة وعشرين عاماً من العمر وأنه قد تحول إلى قبضة غبار لا شكل له ولا قياس . .

غبار الموت الذي تحدث عنه الكتاب المقدس .ربما يحس عندئذ بتوق واهن

إلى الماضي ، لا التوق النابع من كونه جثة حورية هيكلية وإنما جثة مجَردة خالية لا تتجمع إلا في ذاكرة أقاربه الغائمة . عندئذ سيعرف أنه سيتصاعد كالنسغ في الأوعية الشعرية لشجرة التفاح ، ويصحو على قضمة طفل جائع ذات يوم خريفي . سيعرف– وقد أحزنه ذلك– أنه قد فقد وحدته : أنه لم يعد حتى رجلاً ميتاً عادياً ، جثة عادية .

كان قد أمضى تلك الليلة الماضية في الرفقة المترعة بالوحشة لجثته .

ولكن في اليوم التالي ، ومع اختراق الأشعة الأولى للشمس الفاترة للنافذة المفتوحة ، أحس بجلده يرق . راقبه للحظة هادئاً متصلباً . ترك الهواء ينساب فوق جسده . لم يكن ثمة شك في الأمر . كانت «الرائحة» هناك ، فخلال الليل بدأ تحلل الجثة يحدث آثاره . شرع كيانه يتحلل ، يتعفن ، شأن أجساد الموتى جميعاً . كانت الرائحة بلا شك ودون احتمال للخطأ رائحة لحم نتن ، تختفي ثم تعاود الظهور أشد تغلغلاً . كان جسده يتحلل تحت وطأة حر البارحة . نعم . كان يتحلل . خلال ساعات قلائل ستأتي أمه لتبدل الزهور فتلطمها رائحة اللحم المتحلل عند المدخل . عندئذ سيمضون به بعيداً ليغفو موته الثاني وسط الموتى الآخرين .

ولكن فجأة لطمه الخوف في ظهره كأنه طعنه خنجر . الخوف! يا لها من كلمة عميقة حافلة بالمعاني! الآن يستشعر الخوف حقاً ، يعاني خوفاً بدنيا حقيقياً . ترى ما سببه؟ أدرك الأمر تماماً مما جعل لحم بدنه يقشعر : ربما لم يكن ميتاً . لقد وضعوه هناك في ذلك الصندوق الذي بدا بالغ الرقة والنعومة مريحاً على نحو مخيف ، وفتح شبح الخوف نافذة الواقع عليه ، لسوف يدفنونه حياً!

ما كان يمكن أن يكون ميتاً لأنه يدرك كل شيء تمام الإدراك : الحياة التي تدور وتغمغم حوله ، الرائحة الدافئة لنبات عباد الشمس التي تقبل عبر النافذة المفتوحة مختلطة « بالرائحة » الأخرى كان يحس بقطرات المطر المنهمرة في الصهريج . ويدرك وجود صرار الليل الذي بقى في الركن ، ومضى يصدر صريره ظاناً أن البكرة الندية لما تتبدد بعد .

نفى كل شيء موته . كل شيء عدا «الرائحة» . ولكن كيف كان يمكن أن يعرف أن تلك الرائحة هي رائحته؟ لربما نسيت أمه تغيير الماء في الأوعية أول أمس فشرعت سوق الأزهار في التحلل . أو ربما تحلل تحت وطأة الحرارة ذلك الفأر الذي جره القط إلى غرفته .

قبل لحظات قلائل كان مغتبطاً بموته لأنه ظن أنه ميت ، ذلك أن الميت يمكن أن يسعد بوضعه الذي لا علاج له . لكن شخصاً تدب في عروقه لا يمكن أن يستسلم لدفنه حياً . ومع ذلك فإن أعضاءه لم تستجب لندائه . لم يكن بمقدوره التعبير عما يخالجه تستجب لندائه . لم يكن بمقدوره التعبير عما يخالجه وهذا ما ألقى الرعب في قلبه ، أعظم رعب في حياته وموته . فسوف يدفنونه حياً . لربما يكون بمقدوره أن يشعر . أن يعي اللحظة التي سيدقون فيها مسامير الصندوق . سيحس بخواء الجسد الذي تسنده كواهل الأصدقاء ، فيما عذابه ويأسه يتصاعدان مع كل خطوة يخطوها الموكب .

عبثاً سيحاول النهوض ، الصياح بصوته المتخاذل ، أن يلطم داخل التابوت المظلم الضيق لكي يعرفوا أنه لا يزال حياً وأنهم بسبيلهم لدفنه وهو على قيد الحياة . سيكون ذلك بلا طائل ، فحتى هنالك لن تستجيب أعضاؤه لذلك النداء العاجل الأخير من جهازه العصبي .

سمع أصواتاً في الغرفة المجاورة . أيمكن أن يكون غافياً؟ أيمكن أن تكون حياة الميت تلك بأسرها كابوساً؟ لكن صوت الصحاف لم يستمر . لفه الحزن وربما داخله الضيق بسببه . ولو أن كل صحاف العالم تحطمت مرة واحدة إلى جواره ، لن يوقظه مبرر خارجي بما أن إرادته قد خذلته .

ولكن لا . لم يكن الأمر حلماً . كان على يقين من أنه لو كان حلماً فإن عزمه الأخير على العودة إلى الواقع ما كان ليمنى بالإخفاق . إنه لن يصحو من جديد . أحس برقة التابوت . والآن عادت «الرائحة» بزخم أكبر ، بزخم

هائل دفعه للشك في أن الرائحة هي رائحته . كان ود لو رأى أقلربه هنالك قبل أن يتداعى وكان حرياً بمشهد اللحم المتحلل أن يسبب الغشيان لهم ، لسوف يندفع الجيران هاربين خوفاً من الجثة وقد أمسكوا بمنديل وضغطوه على أفواههم . لسوف يبصقون . لا . ليس هذا . سيكون من الأفضل أن يدفنوه . من الخير أن يخرج من غمار «ذلك» بأقصى سرعة ممكنة بل إنه الآن يرغب في أن يغادر جثته . الآن يدرك أنه ميت حقاً أو على الأقل حي بصورة لا يمكن تقديرها ما هو الفارق بين الحالتين؟ على أي حال لقد أطبقت الرائحة شديدة الوطأة .

لسوف يصغي للصلوات الأخيرة باستسلام ، لآخر الجمجمات اللاتينية ورد مساعدي الكاهن غير المتسق عليها . لسوف يخترقه برد المقبرة المليئة بالغبار والعظام حتى عظامه ، ولربما يخفف من حدة «الرائحة» قليلاً . ربما من يدري ، ربما تخرجه اللحظة الداهمة من تلك المنحة . حينما يحس بنفسه سابحاً في عرقه ، في ماء غليظ دبق على نحو ما كان يسبح في رحم أمه قبل أن يولد ، ربما ، من يدري ، ربما يكون عندئذ حياً .

ولكن ما هو أكثر احتمالاً أنه قد غدا الآن غارقاً في استسلامه للاحتضار إلى حد أنه قد يموت من جراء الاستسلام .

الجانب الآخر للموت

استيقظ من نومه منتفضاً دون أن يدري السر في ذلك . تناهت من الغرفة المجاورة رائحة حادة لزهور الأقحوان والفورمالدهايد ، فجة ، داهمة ، مختلطة بعبق الأزهار التي تفتحت لتوها والمنبعث من الحديقة التي أطل عليها الفجر . حاول استرداد هدوئه ، استعادة الروح التي فقدها فجأة في الرقاد . لا بد أن الفجر أطل على الدنيا ، ففي الخارج شرعت المرشة تصدر خريرها وسط الخضر ، ووشت الزرقة السماء التي انكشفت عنها النافذة المفتوحة . تطلع في أرجاء الغرفة الغارقة في الظلال محاولاً تفسير تلك اليقظة الفجائية غير المتوقعة . استشعر الانطباع ، بل اليقين الحسي ، بأن أحداً قد جاء خلال نومه . ورغماً عن ذلك كان وحيداً ، ولم تبد على الباب الموصد من الداخل أي أثار تدل على استخدام العنف . وعالياً في الهواء بدت من خلل النافذة نجمة صبح يقظى . هدأ للحظة كما لو كان يحاول تفكيك قبضة التوتر العصبي الذي دفعه إلى سطح النوم . أغمض عينيه ، رفع رأسه عالياً وشرع في السعي مجدداً وراء خيط الصفاء الذي انقطع . تدفق دمه المعتكر في حلقه ,وفيما وراء ذلك ، في صدره ، في قلبه النابض بيأس فج في إيقاع متدارك خفيف الوقع كما لو كان عائداً مع عدو سريع . استعاد اللحظات

الماضية في ذهنه . ربما كان حلم غريب قد راوده . ربما كان كابوساً . لا . لم يكن ثمة شيء محدد ، لا شيء يدعو للانتفاض في (ذلك) .

كانوا يسافرون في قطار – أذكر ذلك الآن – عبر الريف – غالباً ما راودني هذا الحلم – مثل الطبيعة الصامتة المرقشة بأشجار صناعية زائفة مثقلة الأغصان بفواكه من الأمواس والمقصات وأدوات حانوت الحلاق المختلفة – أذكر الآن أنه كان يتعين عليّ قص شعري – تراءى له ذلك الحلم كثيراً ، لكنه لم يثر قط ذلك الخوف في أعماقه . هنالك خلف إحدى الأشجار وقف أخوه ، الآخر ، التوأم ، ملوحاً – حدث لي ذلك في الواقع في مكان ما – لكي يوقف القطار . ولما اقتنع بعبث الرسالة التي لوح بها شرع يعدو وراء القاطرة إلى أن سقط لاهثاً وقد غطى الزبد فمه . كان ذلك حلمه العبثي اللاعقلاني بالطبع ولكن لم يكن ثمة ما يدعوه لأن يحدث هذه اليقظة المزعجة . أغمض عينيه من جديد ، ولا يزال صدغاه ينبضان بدفع الدم الذي سرى هاتفاً في عروق مثلما قبضة مطبقة . مضى القطار إلى منطقة جدباء ، مقفرة ، تثير الانقباض في النفس . جعله ألم أحس به في ساقه اليسرى يصرف انتباهه عن المناظ الطبيعية . لاحظ أنه في إصبع قدمه الأوسط – ينبغي ألا أستمر في انتعال هذه الأحذية الضيقة . كان هنالك تورم . وبصورة طبيعية ، وكما لو كانت تلك عادته ، انتزع من جيبه مفكاً ، وانتزع رأس الورم به . وضعه بعناية في صندوق صغير أزرق – هل بمقدورك أن ترى ألواناً في الأحلام؟ – ولمح متطلعاً من خلل الجرح نهاية خيط دهني أصفر . جذبه دون أن يستشعر ضيقاً كما لو كان يتوقع وجوده وئيداً وبدقة يحفها الحرص . كان شريطاً طويلاً ، بالغ الطول ، خرج من تلقاء ذاته دون أن يسبب له ضيقاً أو ألماً . بعد لحظة رفع عينيه ، فرأى عربة القطار خاوية وأن الوحيد الباقي في عربة أخرى من القطار هو أخوه ، الذي يرتدي زي امرأة ، ويقف أمام مرآة محاولاً اقتلاع عينه اليسرى بمقص .

ضاق ذرعاً بذلك الحلم ، لكنه لم يستطع تفسير السر في تغييره لمزاجه لأنه في مناسبات أخرى ، وحينما كانت كوابيسه يشيب من هولها الولدان ، كان

يصلح في الاحتفاظ بهدوئه . أحس بالبرودة تطبق على يديه ، أطبقت رائحة الأقحوان والفورمالدهايد على أنفاسه ، وغدت منفرة وعدوانية على وجه التقريب .

أغمض عينيه محاولاً تحطيم الإيقاع المتصاعد لتنفسه ، استمات ليصل إلى موضوع تافه عله يغوص في قرار الحلم الذي انقطع سياقه قبل لحظات . كان بوسعه على سبيل المثال أن يفكر في أنني عليّ خلال ثلاث ساعات أن أمضي إلى حانوت إعداد الجنازات لتسديد النفقات . في الركن كان هناك صرار ليل يقظ يرفع الصوت بصريره ويملأ الغرفة بزوره الحاد القاطع . شرع التوتر العصبي يتراجع وئيداً وإن يكن على نحو فعال ، فلاحظ من جديد تراخي ومرونة عضلاته . أحس أنه قد سقط على الوسادة اللينة الغليظة ، فيما اجتاح جسده الخفيف الذي تجرد من الثقل شعور عذب بالبهجة والفتور ,وفقد وعيه بهيكله المادي ، ذلك الكيان الثقيل الأرضي الذي يحدده ويضعه في بقعة بعينها لا سبيل إلى الخطأ بإزائها في مقياس المملكة الحيوانية ، والذي يحمل العديد من الأجهزة والأعضاء المحددة المكان ، والذي يرفعه إلى القمة التعسفية للحيوانات العاقلة . تراخت جفونه على عينيه مرقشتين بالكرى على النحو الطبيعي ذاته الذي تشابكت به ساقاه وذراعاه في تجميع للأطراف راح يفقد ببطء استقلاله تماماً كما لو كان الكيان بأسره قد تحول إلى كيان واحد كلي ، وتخلى هو – الرجل – عن جذوره الفانية ليتغلغل في الجذور الأخرى الأكثر عمقاً وثباتاً ، الجذور الخالدة لحلم متكامل ومحدد . في الخارج ، ومن الجانب الآخر للدنيا كان بمقدوره أن يسمع أغنية صرار الليل تخفت إلى أن اختفت من نطاق حواسه التي دلفت إلى الداخل ، فغمرته في رحاب مفهوم جديد وبعيد عن التعقيد للزمان والمكان ماحية وجود العالم المادي ، العضوي والمؤلم والمتخم بالحشرات وروائح الأقحوان والفورمالدهايد الخانقة .

أحس وقد التف في المناخ الدافئ لصفاء شامل بخفة موته المصطنع اليومي . غاص إلى جغرافية عاشقة ، إلى عالم مثالي بلا تعقيدات ، عالم

كأنما رسمته ريشة طفل ، دون معادلات جبرية ، دون وداع بين العشاق ، وبغير جاذبية أرضية .

لم يكن على يقين تماماً إلى أي حد دام به الحال على هذا النحو بين السطح النبيل للأحلام وحقائق الواقع . لكنه يتذكر أنه فجأة وكما لو احتز حد سكين حلقه انتفض في الفراش ، وشعر بأن أخاه التوأم ، الذي طواه الموت ، كان جالساً على حافة الفراش .

مرة أخرى ، ومثلما حدث من قبل ، غدا قلبه قبضة مطبقة ترتفع إلى فمه وتدفعه إلى الوثوب . نور الفجر ، صرار الليل الذي واصل طحن العزلة بعضوه الصغير الذي بح صوته ، الهواء البارد المقبل من عالم الحديقة ، كل شيء ساهم في العودة به من جديد إلى عالم الواقع . ولكن في هذه المرة استطاع أن يفهم سبب انتفاضه . لحظات غفوته القصار- بوسعي أن أدرك الأمر الآن- وخلال الليل كله ، وفيما كان يظن أنه ينعم بنوم هانئ لا تعكره الأفكار كانت ذاكرته مثبتة على صورة واحدة ، دائبة ، لا تتغير ، صورة (تلقائية) فرضت نفسها على تفكيره رغم إرادة ومقاومة التفكير ذاته . نعم . فدون أن يلحظ الأمر كانت تلك (الأفكار) تتغلب عليه ، وتملأ جوانحه ، وتسكن أعماقه ، وتمضي به إلى منزلق ثابت هنالك وراء الأفكار الأخرى ، تدعم الكيان الثابت للمأساة الذهنية نهاره وليله . كانت فكرة جثة أخيه التوأم قد التصقت ثابتة في محور حياته بأسره . والآن قد تركوه هناك ، في قطعة أرضه تلك ، الآن والمطر يرقش جفونه ، الآن يستشعر الخوف منه .

لم يخطر بباله قط أن الضربة ستكون قوية على هذا النحو . تسلك الرائحة ثانية عبر النافذة المفتوحة ، مختلطة الآن برائحة مختلفة ، رائحة الأرض المنداة ، العظام المطمورة ، وانبعث شعوره بالرائحة ليلقاها في ابتهاج بالسعادة الهائلة التي تميز رجلاً بهيمي المزاج . انقضت ساعات عديدة منذ اللحظة التي (رآها) فيها متلوية مثل كلب أثخنته الجراح تحت ملاءات الفراش ، عاوياً ،

عاضاً تلك الصرخة الأخيرة التي ملأت زوره بالملح ، مستخدماً مخالبه محاولاً إيقاف الألم ، الذي كان يتصاعد فيه على امتداد ظهره حتى جذور الورم . لم يستطع نسيان ارتطامه مثل حيوان يحتضر متمرداً إزاء الحقيقة التي تجمدت أمامه ، التي تشبثت بجسده في عناد وبدأب لا يمكن قطعه ، فتبدت شيئاً قاطعاً كالموت ذاته . رآه خلال اللحظات الأخيرة لتشنجات موته الوحشي حين تقصفت أظافره على الجدران وهو ينشبها في شريحة الحياة الأخيرة التي راحت تنزلق من بين أصابعه مستنزفة دمه فيما الموات (يتوغل راحلاً فيه) من خلال جانبه مثلما امرأة حقود . ثم رآه يُسقط على فراش عمته الفوضى وقد نهشه الإعياء ، عارقاً ، فيما أسنانه التي غطاها الزبد ترسم ابتسامة رهيبة وحشية للعالم خارجه ، وشرع الموت يتدفق في عظامه كنهر من الرماد .

عندئذ فكرت في الورم الذي كف عن الإيلام في معدته . تصورته مستديراً - الآن أحس بالشعور ذاته - متضخماً مثلما شمس داخلية ، لا يحتمل أنه حشرة صفراء تمد شعيراتها الجهنمية نحو أعماق الأحشاء (أحس باختلاج أمعائه في جوفه مثلما يحدث قبل مداهمة الضرورة العضوية للبدن) لربما أصابني ورم مثل ورمه يوماً ما . سيكون في البداية صغيراً لكنه سيتضخم ، ويتفرع في معدتي مثل الجنين . ولربما شعرت به حينما يبدأ في التحرك في الداخل بغضب طفل يسير في نومه ، مسافراً في عماء عبر أحشائي - وضع يديه على معدته ليحتوي الألم الحاد - ويداه القلقتان ممدودتان نحو الظلال تبحثان عن الرحم الدافئ ، الرحم المضياف الذي لن يعثر عليه قط فيما كيانه الحيواني الخيالي الممتد لمائة قدم يواصل لف ذاته متحولاً إلى حبل سري أصفر طويل . نعم . ربما كنت أنا - المعدة - شأن هذا الأخ الذي لقي حتفه لتوه أعاني من ورم في قرار الأحشاء . الآن تقبل الرائحة التي ضاعت بها الحديقة من جديد قوية ، مقيتة ، ملتفة بنتنٍ يبعث الغثيان . بدا الزمن وكأنه توقف عند تخوم الفجر . تبلورت نجمة الصبح على الزجاجة ، بينما كانت الغرفة المجاورة ، حيث كانت الجثة طوال البارحة ، لا تزال تواصل

بث رسالتها الملتفة بالفورمالدهايد . يقيناً كانت رائحة مغايرة لرائحة الحديقة كانت تلك رائحة أكثر التصاقاً بالكروب وأكثر تعيناً من تلك الرائحة المختلطة لزهور متباينة . رائحة ترتبط دوماً ، إذا ما عرفها المرء ، بالجثث ، كانت الرائحة الثلجية الوافرة التي يخلفها فورمالدهايد المدارج . فكر في المعمل . تذكر الأمعاء المحفوظة في الكحول النقي ، الطيور المتفسخة . يتصلب لحم الأرنب الذي يتشبع بالفورمالدهايد ، يزال الماء من تركيبه ، يفقد مرونته إلى أن يتغير فيغدو أرنباً دائماً مخلداً . الفورمالدهايد . من أين تنبعث هذه الرائحة؟ (الطريقة الوحيدة لاحتواء التحلل) . لو أننا معشر البشر كانت عروقنا تحتوي الفورمالدهايد إذن لغدونا مثل النماذج التشريحية المغموسة في الكحول النقي .

هنالك في الخارج سمع صوت المطر المتزايد الانهمار فيما هو يقعقع لاطماً زجاج النافذة المواربة . انسل هواء بارد ، طلق ، بهيج داخلاً محملاً بالرطوبة . تزايدت برودة كتفيه فجعلته يحس بحضور الفورمالدهايد في عروقه ، كما لو كانت رطوبة الفناء قد سكنت عظامه . الرطوبة ثمة قدر كبير من الرطوبة (هناك) . راح يفكر بامتعاض في ليالي الشتاء حين يتخلل المطر النجيل ويرتاح إلى جوار أخيه مدوماً عبر جثمانه كأنه تيار أسمنتي . بدا له أن الموتى تميس حاجتهم إلى جهاز دوري مختلف يطيح بهم إلى رحاب موت آخر نهائي لا نجاة منه . في هذه اللحظة لم يعد يرغب في المزيد من المطر ، تمنى لو أن الصيف كان فصلاً خالداً يسود دوماً . أحس بالامتعاض جزاء أفكاره تلك من إلحاح ذلك الوقع الرطب على العشب . ودّ لو أن صلصال المقابر يجف ، يظل جافاً دوماً ، إذ راوده القلق حين فكر في أنه بعد أسبوعين وحينما تشرع الرطوبة في الانطلاق عبر النخاع لن يكون هناك رجل يماثله ، يماثله تماماً ، تحت الأرض .

نعم كانا توأمين ، متماثلين تماماً ، وما كان أحد ليستطيع التمييز بينهما من النظرة الأولى . وفيما سبق ، حينما كانا يعيشان حياتين منفصلتين لم يكونا

إلا توأمين ، منفصلين ، بعيدين أحدهما عن الآخر مثل رجلين مختلفين . لم يكن ثمة ما يربطهما (روحياً) .

أما الآن وفيما التصلب ، الواقع الرهيب ، يتسلق صلبه كأنه حيوان لا فقاري تحلل شيء ما في مناخه المتكامل بشيء بدا كالخواء ، كما لو أن هوة فغرت فاها إلى جواره . أو كأنما شطرت بلطة جسده إلى شطرين : ليس ذلك الجسد الممدد تشريحياً على وجه الدقة ، ليس جسده الذي يستشعر الخوف الآن ، وإنما بالأحرى جسد آخر يقبل من وراء جسده هو الذي غاص معه في سيوله ليل رحم الأم وراح يتصاعد معه عبر فروع نسب عريق ، هو الذي كان معه في دم الأسلاف الأربعة لأبويه والذي تحدد مقبلاً من بداية الدنيا مبقياً بثقله وبحضوره الغامض التوازن الكوني بأسره . ربما كان في عروق إسحا وربيكا ، ربما كان أخوه هو الذي ولد مكبلاً إلى عقبيه وأقبل مندفعاً جيلاً بعد جيل ، ليلة بعد أخرى ، من قبلة إلى أخرى ، من عشق إلى آخر ، هابطاً عبر العروق والخصى إلى أن وصل كما لو كان في رحلة ليلية إلى رحم أمه الأخيرة . الآن قدم له مسار الرحلة عبر الأجداد بالغ الإيلام والصدق بعد اختل الآن التوازن وحلت المعادلة . عرف أن ثمة ما ينقصه ليحقق توازنه الشخصي ، تكامله الشكلي اليومي . (لقد تحرر يعقوب على نحو لا علاج له من عقبيه) .

خلال الأيام التي كان أخوه فيها عليلاً ، لم يراوده هذا الشعور لأن الوجه الهضيم الذي قلصه الألم والحمى بلحيته النامية كان مختلفاً عن وجهه .

عندما همدت حركته ، ورقد ممدداً فوق موته الكلي ، استدعى حلاق (ليهندم) الجثة . كان حاضراً ، مستنداً في إحكام إلى الحائط ، حينما وصل الرجل في زيه الأبيض حاملاً أدوات مهنته النظيفة . . . غطى بدقة المتمكن لحية المتوفى برغوة الصابون ، وببطء مثلما يمضي امرؤ يزيح النقاب عن سر هائل شرع في اجتثاثها . في ذلك الوقت انقضت عليه (تلك الفكرة الرهيبة .

فيما وجه أخيه التوأم الشاحب الضارب إلى الرماد يتجلى تحت الموسى الماضية في الاجتثاث ، راوده الشعور بأن الجثة القابعة هناك ليست (شيئاً) غريباً عنه وإنما هي مخلوقة من مادته الترابية ذاتها ، إنها تكراره الشخصي . . . خالجه إحساس غريب بأن توأمه قد انتزع صورته من المرآة ، الصورة التي رآها في صقال المرآة وهو يحلق لحيته . الآن اكتسبت الاستقلال تلك الصورة التي اعتادت أن تستجيب لكل حركة من حركاته . لقد راقبها في مرات أخرى ، كل صباح ولحيتها تجتث . أما الآن فهو يشاهد التجربة الفجائية لرجل آخر وهو ينتزع اللحية من الصورة المرتسمة في صقال مرآته ، حضوره العضوي وقد انتفت الحاجة إليه ، داخله اليقين قاطعاً بأنه إن مشى إلى المرآة لوجدها خاوية وإن عجزت الفيزياء عن إيجاد تفسير لهذه الظاهرة . كان شعوراً بالانشطار إلى شطرين! لقد كان بديله جثة! حاول في يأس أن يبدي رد فعله فمس الحائط الصلد الذي يتعالى بداخله عن طريق اللمس كضرب من تيار الأمن : أنجز الحلاق عمله ، وبطرف مقصه أطبق جفون الجثة . ترك الليل جوفه مرتعداً بالعزلة التي لا تقهر لجثة اجتث شعرها . هكذا كان حالهما على وجه الدقة ، أخوان متماثلان تكرراً بصورة عاصفة .

عندئذٍ ، وفيما هو يرصد مدى التلاصق الحميم لهاتين الطبيعيتين ، خطر له أن شيئاً فذا وغير متوقع سيحدث . تخيل أن انفصال الجسدين في الفراغ هو مجرد مظهر بينما هما في الواقع لهما الطبيعة الوحدة الكلية ذاتها . لربما حين يصل التحلل العضوي إلى الميت فإنه هو الحي سيشرع في التحلل كذلك في داخل عالمه المتحرك .

كان بمقدوره سماع المطر يقرع بمزيد من القوة أطر النوافذ وصرار الليل يطلق نقيقه فجأة ، أصابت يديه الآن برودة لا إنسانية متطاولة ، غدت رائحة الفورمالدهايد أكثر عتواً ، فدفعته إلى التفكير في احتمال بلوغ التحلل الذي كان أخوه التوأم ينقله إليه من هناك ، من حضرته المتجمدة في الأرض . هذا عبث! ربما كانت الظاهرة عكس ذلك ، فلا بد أن التأثير يمارسه من لا يزال

على قيد الحياة بطاقته ، بخلاياه الحية . ربما - على هذا المستوى - سيظل مع أخيه أيضاً على ما هما عليه يقيمان صرح التوازن بين الحياة والموت فيما هما يدافعان عن نفسيهما ضد التحلل . ولكن منذا الذي يمكنه التيقن من ذلك؟ أليس من المحتمل بالقدر ذاته أن يظل الأخ الميت مستعصياً على التحلل بينما يغزو التعفن الأخ الحي بكل كائناته الأخطبوطية الزرقاء؟

حدث نفسه بأن الافتراض الأخير هو الأكثر احتمالاً ، واستسلم لانتظار مقدم ساعته المروعة . غدا لحمه لدناً ، دهنياً ، حدث نفسه بأن في مقدوره أن يستشعر مادة زرقاء تكسو بدنه كله . تشمم متوقعاً انبعاث روائح بدنه الكريهة ولكن رائحة الفورمالدهايد المنبعثة من الغرفة المجاورة هي وحدها التي عذبت أغشيته المخاطية برجفة جليدية لا سبيل للخطأ بشأنها . لم يعد ثمة ما يثير قلقه إثر ذلك . حاول صرار الليل القابع في الركن البدء في أغنيته من جديد فيما شرعت قطرة غليظة متماسكة في الأغوار على امتداد السقف في وسط الغرفة تماماً . سمعها تهوى دون أن تخامره الدهشة لأنه كان يعرف أن الخشب عتيق في هذه البقعة . لكنه تخيل أن تلك القطرة التي تشكلت من ماء طيب ، بارد ، ودود مقبلة من السماء ، من حياة أفضل ، من حياة أوسع نطاقاً ، وليست مليئة بالظواهر البلهاء كالحب أو الهضم أو كون المرء توأماً . ربما ستملأ هذه القطرة الغرفة خلال ساعة أو في ألف عام وتحلل ذلك الدرع الفاني ، تلك المادة العبثية التي ربما - ولم لا؟ بين لحظات قصار لن تعود إلا مزيجاً لزجاً من الزلال ومصل اللبن . الآن تعادل كل شيء ، وحده موته أقبل ليدلف بينه وبين قبره ، أصغى مستسلماً للقطرة وهي تهوي غليظة ، ثقيلة ، متماسكة في العالم الآخر ، في عالم الكائنات العاقلة الخاطئ والعبثي .

إيڤا تتقمص قطتها

لاحظت فجأة أن حسنها قد تداعى ، وأنه قد شرع يسبب لها ألماً عضوياً ، كأنه ورم أو سرطان . لا تزال تذكر وقر التميز الذي حملته على جسدها في عهد المراهقة ، ذلك الوقر الذي أسقطته الآن عن كاهلها - منذا الذي يعلم أين أسقطته؟ - مع حلول إعياء الاستسلام وبالإيماءة الأخيرة لمخلوق يتهاوى . كان من المستحيل الاستمرار في حمل ذلك الوقر ، وقد اضطرت إلى إلقاء تلك المميزة لشخصيتها في مكان ما ، ربما عند منعطف أو في موضع ما بالضواحي ، أو إلى تركه على مشجب المعاطف في مطعم رخيص شأن معطف عتيق لا جدوى منه . سئمت أن تكون محط اهتمام الناس وموضع حصار نظراتهم الطويلة . في الليل حين يغرس الليل دبابيسه في عينيها تود لو كانت امرأة عادية دونما جاذبية خاصة . كان كل شيء في محيط جدران غرفتها الأربعة معادياً لها . وفي غمار اليأس كان بمقدورها أن تحس بأرقها ينتشر تحت جلدها متصاعداً إلى رأسها دافعاً بالحمى إلى منابت شعرها . بدا الأمر كما لو أن حشرات صغيرة ملتهبة قد سكنت عروقها ومع إطلالة الفجر كل يوم تستيقظ وتدب على أطرافها المتحركة في مغامرة تحت الجلد ، في ذلك الموضع الذي يحاكي فاكهة صلصالية ، حيث يتخذ حسنها التشريحي مأواه . عبثاً حاولت طرد تلك الكائنات الرهيبة ، فقد أعجزها ذلك إذ كانت جزءاً من

كيانها . قبعت هنالك ، نابضة بالحياة ، قبل وجودها العضوي بوقت طويل . أقبلت من قبل أبيها الذي غذاها على نحو حافل بالألم خلال ليالي عزلته المترعة يأساً . أو ربما انصبت في عروقها من خلال الحبل السري الذي ربطها بأمها منذ بداية العالم . ليس هناك شك في أن تلك الحشرات لم تولد عفو الخاطر داخل جسدها . كانت تعرف أنها قد أقبلت من البعيد وأن كل من يحملون لقبها كان عليهم احتمالها ، وتعين عليهم أن يقاسوا منها حينما يحكم القلق قبضته التي لا تقهر عليهم حتى الفجر . كانت تلك الحشرات هي ذاتها التي رسمت ذلك التعبير المرير ، ذلك الحزن الذي لا مجال معه للعزاء ، على وجوه أجدادها . كانت قد رأتهم يطلون من وجودهم المتصرم ، من صورهم العتيقة وقد بدوا ضحايا لذلك العذاب ذاته . لا تزال عالقة بذهنها ذكرى وجه جدتها الكبرى الباعث على الاضطراب ، والتي كانت من نسيج صورتها تستجدي لحظة راحة ، ثانية واحدة من الشعور بالسلام ، من تلك الحشرات التي كان هنالك في مساري دمها تواصل جعلها شهيدة ، مضفية دونما رحمة الحسن على ملامحها . لا . إن هذه الحشرات لا تنتمي إليها . وإنما هي قد أقبلت منتقلة من جيل إلى آخر ، مبقية بدرعها الدقيق على تميز طائفة مختارة ، مجموعة مختارة بصورة مؤلمة . لقد ولدت هذه الحشرات في رحم أول امرأة حملت طفلة بديعة الحسن . لكنه كان أمراً ضرورياً وعاجلاً أن يوضع لذلك التراث . لا بد لأحد أن يرفض الانتقال الأبدي لذلك الجمال المصطنع . لم يجد النساء المنحدرات من أرومتها نفعاً أن يعجبن بأنفسهن وهن منصرفات عن المرايا طالما أنه خلال الليل تعكف تلك المخلوقات على عملها البطيء الفعال الذي لا يتوقف بدأب القرون . لم يعد ذلك جمالاً وإنما هو مرض يتعين إيقافه ، ينبغي أن يقتلع من جذوره على نحو جريء وباتر .

لا زالت تذكر الساعات الممتدة بلا انتهاء التي قضتها على ذلك الفراش المرقش بالإبر المحماة ، تلك الليالي التي حاولت فيها أن تعجل بمسيرة الزمان لعل الحشرات تكف عن إيذائها مع مقدم الصبح . ترى ما جدوى جمال

كهذا؟ راحت تحدث نفسها ليلة إثر أخرى ، وهي غارقة في يأسها ، بأنه كان من الخير لها أن تكون امرأة عادية أو رجلاً ، لكنها حرمت هذه الفضيلة التي لا طائل وراءها ، ومضت تغذيها حشرات تضرب جذور وجودها في البعيد ، وتعجّل بمقدم حتفها الذي لا فرار منه . لربما كانت ستصبح سعيدة لو أنها كانت تتمتع بذلك الترهل وبالقبح الكئيب عينه الذي تحظى به صديقتها التشكيلية التي تحمل اسم كلب . كان يمكن أن تكون أحسن حالاً لو أنها كانت قبيحة المنظر لعلها تغفو في سلام شأن أي مسيحية أخرى .

كانت اللعنات لأسلافها ، فهم المسؤولون عن أرقها ، إذ نقلوا إليها ذلك الحسن ذاته الذي لا يتغير ، كأنما الأمهات عقب الموت يهززن ويجددن رؤوسهن ليمنحنها لأبدان بناتهن/ بدا الأمر كما لو كانت رأساً واحداً لا تتبدل قد واصلت الانتقال دوماً بالأذنين ذاتيهما ، والأنف نفسه وبفم متطابق ، بذكائها اللماح إلى كل النسوة اللاتي كان قدرهن تلقيها على نحو لافكاك منه كأنها ميراث حسن حافل بالألم . هناك في غمار انتقال الرأس ، تشكل الميكروب الخالد المنحدر عبر الأجيال ، واكتسب شخصية وقوة إلى أن غدا كياناً لا يقهر ومرضاً لا برؤ منه ، وما عاد من الممكن احتماله ، إذ بلغها عقب مروره بعملية مقصرة فأصبح مريراً ومؤلماً . . .تماماً كأنه سرطان أو ورم .

تذكرت خلال ساعات اليقظة تلك الأشياء التي لا تتفق ورؤيتها المرهفة ، استعادت ذكرى الأشياء التي تشكل الكون العاطفي حين تغرس ميكروبات اليأس وكأنما في عملية غليان مواد كيميائية . خلال هاتيك الليالي ، كانت تحتمل ، وعيناها النجلاوان مفتوحتان ومفعمتان خوفاً ، وطأة الظلام الذي ينهال على صدغيها كرصاص منصهر . كان كل شيء غافياً حولها ، ومن ركنها حاولت لكي تجلب النعاس استعادة ذكريات طفولتها .

لكن ذلك التذكر كان ينتهي دوماً برعب المجهول ، فدائماً كانت أفكارها بعد أن تضرب في أرجاء الدار المعتمة تجد نفسها وجهاً لوجه مع الخوف ،

وعندئذ يبدأ الصراع . الصراع الحقيقي ضد ثلاثة أعداء يستعصي تحريكهم . لن تستطيع أبداً – نزع الخوف من رأسها ، سيتعين عليها احتماله فيما هو يحكم قبضته على زورها ، وكل هذا لا لشيء إلا لتحيا في هذه الدار العتيقة ، لترقد وحيدة في ذلك الركن ، بعيدة عن بقية الدنيا .

كانت أفكارها تمضي على امتداد الممرات المعتمة الرطبة تنفض الغبار المثقل بنسيج العنكبوت عن الصور ، ذلك الغبار الرهيب المفزع الذي يتساقط من الأعالي ، من حيث تتداعى عظام أسلافها . دائماً كانت تتذكر (الفتى) ، تتصوره هنالك سائراً في نومه تحت العشب في الفضاء إلى جوار شجرة البرتقال وملء قبضة من التراب الرطب في فمه . بدت كما لو كانت تراه في أعماقه الصلصالية يحضر صاعداً بأظافره وأسنانه هارباً من البرد الذي ينهش ظهره ، باحثاً عن مخرج يفضي به إلى الفناء عبر ذلك النفق الصغير حيث أوسدوه مع القواقع . تسمعه في الشتاء يبكي منتحباً وقد غطاه الوحل وأغرقه المطر . تصورته كما هو ، تماماً على نحو ما تركوه قبل خمس سنوات في الحفرة المترعة بالماء . فما كان بمقدورها أن تتخيله وقد نالت منه يد التحلل ، بل ربما على العكس من ذلك كان أشد وسامة وهو يجر عبر ذلك الماء الغليظ كأنما هو في رحلة ولا مهرب هناك ، أو كانت تراه ينبض بالحياة وإن تملكته الخشية وداخله الخوف من أن يحس بنفسه وحيداً وقد دفن في ذلك الفناء المقبض . كانت قد اعترضت على تركه هناك تحت شجرة البرتقال ، جد قريب من الدار على هذا النحو ، فقد كانت تخافه . كانت تعرف أنه في الليالي التي يطاردها فيها الأرق سيحس هو بذلك ، سيعود عبر الممرات العريضة ليطلب منها أن تمكث معه ، ليناشدها أن تدفع عنه غائلة تلك الحشرات الأخرى التي تقرض جذور زهور أقحوانة . سيعود إليها علها تدعه يضطجع إلى جوارها على نحو ما كان يفعل فيما كان حياً . كانت تخاف من الإحساس به إلى جوارها من جديد بعد أن وثب عبر جدار الموت . راودتها الخشية من سرقة هاتين اليدين اللتين سيبقيهما (الفتى) مطرقتين لعلهما تبعثان الدفء في قطعة جليده

الصغيرة . ودت ، بعد أن رأته يتحول إلى أسمنت ، وكأنه تمثال للخوف هوى في قرار الوحل ، ودت لو أنهم مضوا به بعيداً حتى لا تذكره في الليل . ورغماً عن ذلك فقد تركوه هنالك ، حيث تمالك جأشه الآن وغدا بائساً يطعم دمه وحل ديدان الأرض . وقد اضطرت للاستسلام لرؤيته عائداً من أغوار ظلاله ، ذلك أنها دوماً ودون أدنى تغيير تشرع حين ترقد مسهدة بالتفكير في (الفتى) الذي يناديها يقيناً من قرار لحده لعلها تمد له يد العون في الهرب من موته العبثي .

أما الآن ، في حياتها الجديدة ، المؤقتة ، المجردة من المكان ، فقد كانت أكثر هدوءاً ، إذ عرفت أن كل شيء هناك ، خارج عالمها ، سيواصل المسير بالإيقاع ذاته كذي قبل ، وأن غرفتها ستظل غارقة في غبش الفجر ، وأشياءها ، أثاثها ، كتبها الثلاثة عشر الأثيرة جميعها تحتل موضعها ذاته ، وأنه في فراشها الخاوي يشرع الآن فحسب عطر البدن الذي كان يفصم فراغ ما كان امرأة مكتملة في التبدد . ولكن كيف أمكن أن يحدث (ذلك)؟ كيف أمكن لها بعد أن كانت امرأة فاتنة تسكن الحشرات دمها ويطاردها الخوف من ذلك الليل المطلق أن تتعرض الآن لذلك الكابوس الهائل اليقظ المتمثل في ولوجها لعالم غريب مجهول ضاعت فيه كل الأبعاد؟ تذكرت . كانت تلك الليلة – ليلة مرورها – أشد برودة من المألوف ، وكانت وحيدة في الدار يرقى بها الأرق إلى رحاب الاستشهاد . ما من أحد خدش سطح الصمت ، وكانت الرائحة المقبلة من الحديقة هي رائحة الخوف . تحدر العرق على جسدها ، كما لو كان الدم الساري في عروقها يصب إلى خارج بدنها شحنته من الحشرات . ودت لو أن أحداً مر قريباً من الطريق ، لو أن أحداً يصرخ ، يحطم ذلك المناخ المتجمد في موضعه . تاقت إلى شيء يتحرك في رحاب الطبيعة ، إلى أن تدور الأرض حول الشمس من جديد . ولكن بلا طائل ، فلم يكن ثمة مجال لاستيقاظ أحد ، حتى أولئك الحمقى الذين أخذتهم سنة نوم تحت أذنها داخل الوسادة ، تجمدت بدورها ، فاحت من الجدران رائحة طلاء قوية حديثة العهد ، تلك

الرائحة الثقيلة الفاغمة التي لا تشمها بأنفك ، ولكنها تجثم على معدتك . وعلى المنضدة راحت الساعة الوحيدة تقرع الصمت بآليتها القاتلة ، تنهدت متذكرة الموت وهي تغمغم : (يا أيها الزمن . . .أوه ، أيها الزمن) وهناك في الفناء ، تحت شجرة البرتقال كان (الفتى) لا يزال منخرطاً في البكاء بنحيبه الواهن المتناهي من العالم الآخر .

لاذت بكل ما تؤمن به . لماذا لم ينبلج الصبح تواً وقتها هناك أو لماذا لم تلق حتفها مرة وللأبد؟ لم يحدث قط أن حسبت أن الجمال سيقتضيها العديد من التضحيات على هذا النحو . في تلك اللحظة – وكالمعتاد – كان جمالها يؤلمها مضيفاً المزيد من العبء إلى جوار خوفها . وتحت خوفها كانت تلك الحشرات الشرسة تواصل التصاعد بها إلى رحاب الاستشهاد . لقد اعتصرها الموت دافعاً بها إلى الحياة ، مثلما يفعل عنكبوت قارضاً إياها في حنق ومتأهباً لإخضاعها . لكن اللحظة الأخيرة طال أمدها . كانت يداها ، هاتان اليدان اللتان كان الرجال يعتصرانهما كالحمقى بعصبية بهيمية جلية ، جامدتين وقد شلهما الخوف والفزع اللاعقلاني المنبعث من الأغوار دونما دافع ، اللهم إلا معرفتها بأنها مهجورة في هذه الدار العتيقة . حاولت أن تبدى استجابة ما ، لكنها عجزت عن ذلك ، فقد امتصها الخوف تماماً ، وقبع هنالك جاثماً ، عنيداً ، يوشك أن يكون متجسداً ، كأنما هو شخص خفي عقد العزم على ألا يغادر غرفتها . كان الجانب الذي يثير الضيق أكثر من غيره متمثلاً في أنه لم يكن هناك على الإطلاق ما يبرز الخوف ، إنه كان خوفاً فريداً من نوعه ، دونما سبب ، خوفاً لا لشيء إلا . . .

ازداد اللعاب غلظة فوق لسانها . كان ذلك الصمغ الصلد الملتصق بسقف حلقها والذي يسيل لأنها عاجزة عن احتوائه مثيراً للضيق بين أسنانها . كان ما تحس به مختلفاً عن الرغبة في أن تروي ظمأها . رغبة أسمى كانت تراودها للمرة الأولى في عمرها نسيت للحظة جمالها ، أرقها ، وخوفها ، لم تتعرف نفسها . حدثت نفسها للحظة بأن الميكروبات قد غادرت حقاً . رائع أن

الحشرات لم تعد تسكنها وأنه بوسعها أن تغفو الآن ، ولكن عليها أن تجد سبيلاً لإذابة تلك المادة الصمغية العالقة بلسانها . لو أنها كان بمقدورها فحسب أن تصل إلى غرفة الأدوات الفضية و . . . لكن ما هذا الذي تفكر فيه؟ انتفضت مندهشة ، فلم يسبق لها أن أحست بـ(تلك الرغبة) . . . أضعفها طغيان الحموضة ، وجعل الانضباط الذي التزمت في إخلاص شديد طوال سنوات عديدة منذ أوسدوا (الفتى) التراب . كان ما تحس به من قبيل الحماقة ، لكنها استشعرت رغبة طاغية في التهام ثمرة برتقال . كانت تعرف أن (الفتى) قد تصاعد حتى أزاهير البرتقال وأن ثمار الخريف التالي ستكون متخمة بلحمة ، باردة ببرودة موته . لا . لم يكن بمقدورها تناول الثمار . كانت تعرف أنه تحت كل شجرة برتقال في الدنيا يرقد فتى مسجى يمنح الحلاوة للثمار بكلس عظامه . ورغم ذلك فعليها أن تتناول ثمرة برتقال الآن ، فذلك هو الشيء الوحيد للتخلص من ذلك الصمغ الذي يخنق أنفاسها . كان من الحماقة أن تفكر في أن (الفتى) كامن في الثمار . لسوف تنتهز فرصة تلك اللحظة التي كف فيها الجمال عن أن يبعث الألم فيها لتمضي إلى غرفة الأدوات الفضية . ولكن ألم يكن ذلك غريباً؟ كانت تلك هي المرة الأولى في حياتها التي شعرت فيها بما يحفزها لتناول ثمرة برتقال . شعرت بالسعادة ، السعادة ، أوه ، يا لها من فرحة! أن تلتهم ثمرة برتقال . لم تدر ما السبب ، لكنها لم تحس أبداً بمثل هذه الرغبة الملحة! لسوف تنهض سعيدة بأن عادت امرأة عادية من جديد ، تغني في مسرح إلى أن تصل إلى غرفة الأدوات الفضية ، شادية كامرأة جديدة ، بعثت من جديد ، بل لسوف تمضي إلى الفناء و . . .

فجأة تهاوت ذاكرتها . تذكرت أنها حاولت النهوض . وأنها لم تعد في فراشها ، وأن جسدها قد تبدد ، وأن كتبها الثلاثة عشر الأثيرة لم تعد في موضعها ، وأنها لم تعد هي ذاتها ، إنها الآن قد أصبحت بلا جسم ، طافية ، تحوم فوق عدم مطلق ، تحولت إلى بقعة بلا شكل ، ضئيلة ، تفتقر إلى اتجاه

تمضي نحوه . عجزت عن ربط جزئيات ما وقع . أحست بالاضطراب ، لم تشعر إلا بأن أحدهم قد دفعها نحو الفراغ من قمة هوة هائلة . أحست بأنها قد تحولت إلى امرأة أثيرية ، شيء يماثلها اقتحم فجأة عالم الأرواح النقية السامق المجهول .

عاودها الخوف . لكنه كان خوفاً مختلفاً عما شعرت به قبل هنيهة ، فلم يعد خوفاً من نحيب (الفتى) . كان رعباً مما هو غريب ، مما هو غامض ومجهول في عالمها الجديد . ويزيد في عمق ذلك الشعور التفكير في أن كل شيء وقع على هذا النحو من البراءة بكل هذا القدر من السذاجة من جانبها . ماذا عساها ستقول لأمها حين تحدثها بما وقع لدى عودتها إلى الدار؟ شرعت تفكر في مدى انزعاج الجيران حين يفتحون باب مخدعها ويكتشفون أن الفراش خاو ، وأن المغاليق لم تمس وأنه ما من أحد كان بمقدوره أن يلج المخدع أو يغادره ، وأنها لم تكن موجودة رغم هذا كله . تصورت تحركات أمها المفعمة يأساً وهي تفتش الغرفة متسائلة : (ترى ما الذي وقع لهذه البنت؟)كان المشهد جلياً أمامها . لسوف يصل الجيران ويشرعون في نسج التعليقات سوياً . سيكون بعضها خبيث الطوية – حول اختفائها . سيمعن كل منهم طرح أكثر التفسيرات اقتراباً من المنطق أو على الأقل أكثرها عرضة لتقبل الآخرين ، فيما ستغدو أمها عبر الأبهاء في الدار الكبيرة ، وقد أخذ منها اليأس كل مأخذ منادية باسمها .

هنالك ستكون . لسوف تتأمل اللحظة ، جزئية وراء الأخرى ، من ركن من سقف ، من شقوق في الجدران ، من أي مكان ، من أفضل زاوية ممكنة تحميها وضعيتها المتجردة من البدن ، غائصة في رحاب تجردها من سطوة المكان . ضايقها التفكير في الأمر . الآن أدركت خطأها ، فلن يكون بمقدورها تقديم أي تفسير ، أو أن توضح أي شيء ، أو أن تبعث العزاء في نفس أحد ، فمن المستحيل إبلاغ كائن حي بالتحول الذي طرأ عليها . الآن – وربما كانت تلك هي المرة الوحيدة التي تحس فيها حاجتها إليهم- لن يكون لها فم أو

ذراعان ليعلم الجميع بأنها هنالك في الركن ، تفصلها عن الزمان والمكان والفراغ مسافة لا سبيل إلى قطعها . كانت معزولة في حياتها الجديدة يحال تماماً بينها وبين إدراك الانفعالات . ولكن في كل لحظة كان ثمة ما يختلج في أعماقها . رعشة تجتاحها ، تقهرها ، تجعلها تدرك ذلك الكون العضوي الآخر الذي يتحرك مفارقاً لعالمها . لم يكن بمقدورها الإصغاء أو المشاهدة ، لكنها كانت (تعرف) بذلك الصوت وذلك المشهد . وهنالك في ذرى عالمها الأسمى بدأت تعرف أن بيئة من العذاب قد لفتها في أغوارها .

كانت قبل لحظة -بمعايير عالمنا الفاني- قد اجترحت العبور ، بحيث أنها الآن فحسب بدأت تلم بخصوصيات وسمات عالمها الجديد . لفتها ظلمة غميقة مطلقة . إلام تدوم هذه الظلمة؟ هل سيتعين عليها أن تعتادها إلى الأبد؟ تفاقم عذابها من جراء تركيزها فيما هي ترى نفسها غارقة في ذلك الضباب الغليظ العصيّ الاختراق : أيمكن أن تكون في موطن الأرواح التي حظر عليها دخول النعيم دونما ذنب اقترفته؟ أخذتها الرعدة . تذكرت كل ما سمعته عن هذا الموطن . لو أنها كانت حقاً هنالك لكانت طفت إلى جوارها أرواح نقية أخرى ، أرواح أطفال ماتوا دونما تعميد ، يواصلون الاحتضار طوال ألف عام . حاولت في الظلمة العثور إلى جوارها على تلك الكائنات التي من المحتم أنها أشد نقاءً وأكثر بساطة منها ، فألفت نفسها وقد حكم عليها بالعزلة الكاملة عن العالم العضوي وبالسير نائمة في حياة لا تنقضي . ربما كان (الفتى) هنالك يبحث عن مخرج يفضي به إلى جثته .

ولكن كلا . لم يتعين عليها أن تكون في موطن للأرواح؟ أتراها لقيت حتفها؟ كلا . ما الأمر إلا تحولاً في الحالة التي هي عليها ، عبوراً عادياً من العالم العضوي إلى عالم يسير ، خال من التعقيد حيث انهارت كل الأبعاد .

الآن لن تعود بها حاجة إلى احتمال تلك الحشرات التي تسري تحت الجلد . لقد تداعى جمالها ، والآن في هذا الموقف الجوهري يمكنها أن تحس

بالسعادة ، رغماً عن أن – أوه – أنها ليست سعيدة تماماً لأن أعظم رغباتها ، رغبتها في أن تتناول ثمرة برتقال قد غدت مستحيلة التحقيق . كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يجعلها راغبة لا تزال في أن تظل في حياتها الأولى ، لكي تتمكن من إرضاء إلحاح الحموضة التي تطاردها عقب مرورها . حاولت توجيه نفسها لتصل إلى غرفة الأدوات الفضية ، وتستشعر على الأقل الحضور البارد الحمضي لثمار البرتقال . عندئذ اكتشفت صفة أخرى من صفات عالمها ، أنها في كل مكان من الدار ، في الفناء ، على السقف بل وفي شجرة برتقال (الفتى) . إنها موجودة في العالم العضوي الممتد هناك إلى البعيد بأسره . ومع ذلك فلم تكن في أي مكان . داخلها الضيق ثانية . لقد فقدت السيطرة على نفسها الآن غدت خاضعة لإرادة أسمى ، فهي كائن لا جدوى منه ، عبثي الوجود ، وحضوره بلا طائل . بدأ الحزن يغمرها دون أن تدري السبب . بل وشرعت على وجه التقريب تحس بالحنين إلى حسنها . بالحنين إلى ذلك الحسن الذي ألحق في حماقة ، الدمار بها .

لكن فكرة فائقة بقيت عالقة بذهنها . ألم تسمع بأن الأرواح النقية يمكنها اختراق أي جسم وقتما تشاء؟ على أي حال ما ضرها لو حاولت؟ حاولت أن تتذكر أي قاطن للدار يمكن أن يوضع موضع الاختبار . لو أنها استطاعت تحقيق ما ترمى إليه إذن لغمرها الرضا وسيكون بمقدورها تناول ثمرة البرتقال . تذكرت . في ذلك الوقت لا يكون الخدم هنالك . وأمها لم تصل بعد . لكن الحاجة إلى تناول ثمرة برتقال ، وقد تداخلت الآن مع الفضول الذي تشعر به لترى نفسها وقد بعثت في جسد مختلف عن جسدها ، أجبرتها على التحرك في الحال . ومع ذلك لم يكن ثمة أحد يمكن أن تبعث فيه ذاتها ، وكان لذلك سبب محير ، فلم يكن هناك أحد في الدار . سيتعين عليها أن تحيا إلى الأبد معزولة عن العالم الخارجي ، قابعة في عالمها ، عاجزة عن تناول ثمرة البرتقال الأولى ، وكل ذلك بسبب أمر تافه ، كان خيراً لها أن تواصل لعدد قليل آخر من السنوات الاحتمال تحت وطأة ذلك الحسّ المعادي وألا تستأصل نفسها

للأبد جاعلة من ذاتها شيئاً لا جدوى منه شأن حيوان مقهور . لكن الأوان قد فات .

كانت بسبيلها إلى الانسحاب ، غارقة في الشعور بخيبة الأمل ، إلى أقنوم ناء من الكون ، إلى مكان تستطيع فيه نسيان كل رغباتها الأرضية . لكن شيئاً ما جعلها تتوقف فجأة . لقد سطع الوعد بمستقبل أفضل في أقنومها المجهول . نعم ، ثمة كائن بالدار تستطيع أن تبعث نفسها فيه . . القطة! ثم ترددت . كان من العسير أن تركن للحياة متقمصة بدن حيوان . لسوف يكون بها فراء ناعم أشهب ، وطاقة هائلة على الوثب ربما يقدر لها أن تتركز في عضلاتها . ستحس بعينيها تتألقان في الظلام شأن قطعتين خضراوين من الفحم . وستكون لها أسنان بيضاء حادة تبتسم من خلالها لأمها ابتسامة صادرة عن قلبها السنوري تتبدى ابتسامة حيوانية بديعة بعرض محياها . ولكن لا . هذا مستحيل . تصورت نفسها سريعاً متقمصة جسد قطة تعدو عبر أبهاء الدار من جديد على قوائم أربعة تخلق شعوراً بعدم الارتياح ، ولسوف يتحرك ذلك الذيل من تلقاء نفسه ، دونما إيقاع ، مفارقاً لإرادتها . كيف ستبدو الحياة من خلال هاتين العينين الخضراوين المتقدتين؟ في الليل ستموء ضارعة للسماء ألاّ تصب سناها القمري الذي يحاكى الأسمنت على محيا (الفتى) الذي سيكون مضطجعاً على ظهره يرتشف الندى . ربما ستحس كذلك بالخوف وهي متقمصة بدن القطة . وربما تعجز في النهاية عن التهام ثمرة البرتقال بذلك الفم الحيواني . ارتجفت برودة انبعثت من جذور روحها ذاتها في قرارة ذاكرتها . لا . مستحيل أن تبعث ذاتها في بدن قطة ، فهي تخشى أن تستشعر ذات يوم في لهاتها ، في زورها ، في كل أعضاء جسدها القائم على أربع رغبة لا سبيل إلى قمعها في التهام فأر . ربما حين تبدأ روحها في سكنى جسد القطة لن يراودها الشعور بالرغبة في تناول ثمرة برتقال وإنما برغبة عاجلة ومقيتة في التهام فأر . اخترقها رعشة لدى التفكير في الفأر وقد أمسكته بين

أسنانها بعد المطاردة . أحست به مختلجاً في غمار محاولاته الأخيرة للهرب ، لتحرير نفسه ، للعودة إلى جحره مرة أخرى . لا . كله إلا هذا . خير لها أن تظل هناك إلى الأبد ، في عالم الأرواح النقية ذاك البعيد المتشح بنقاب الغموض .

لكنه كان من العسير عليها أن تسلم نفسها للحياة تحت رماد النسيان للأبد ، لم يتعين عليها أن تشعر بالرغبة في التهام فأر؟ من الذي سيقدر له أن يتحكم في ذلك الكائن المركب من المرأة . والقطة؟ هل تسوء الغريزة الحيوانية البدائية للجسد أم الإرادة الخالصة للمرأة . كانت الإجابة بالغة الوضوح ، فليس ثمة ما يدعو للخوف ، لسوف تتقمص القطة ، وتلتهم برتقالتها المشتهاة ، فضلاً عن هذا فإنها ستكون مخلوقاً غريباً ، قطة لها ذكاء امرأة جميلة . لسوف تكون محط الاهتمام . . .عندئذ ، وللمرة الأولى أدركت أن ما يحكم قبضته الأمرة سامقاً فوق كل فضائلها هو غرور امرأة رحلت إلى ما وراء حجاب الطبيعة .

شأن حشرة مستنفرة تشهر قرون استشعارها ، ألقت بطاقتها إلى رحاب العمل في أرجاء الدار بحثاً عن القطة . لابد أنها لا تزال في هذا الوقت جاثمة فوق المدفأة وهي تحلم بأنها ستستيقظ لتجد عسلوجاً من عباد الشمس بين أسنانها . لكنها لم تكن هناك . بحثت عنها من جديد ، لكنها لم يعد بوسعها العثور على المدفأة . لم يعد المطبخ كعهده من قبل . بدت أركان الدار غريبة لها ، فلم تعد تلك الأركان المعتمة المليئة بنسج العنكبوت . واستحال العثور على القطة . بحثت فوق السقف ، خلل الأشجار ، في المصارف ، تحت الفراش ، في غرفة الأدوات الفضية . ألفت كل شيء مضطرباً ، فحين توقعت أن تجد صور أسلافها لم تعثر إلاّ على زجاجة زرنيخ . وابتداء من ذلك الموضع وجدت الزرنيخ في أرجاء الدار كافة ، لكن القطة كانت قد اختفت . لم تعد الدار كما كانت قبلاً . ما الذي حدث لمتعلقاتها؟ لم تغط طبقة غليظة من الزرنيخ كتبها الثلاثة عشر الأثيرة؟ تذكرت شجرة البرتقال القائمة في الفناء .

وحاولت تبين (الفتى) من جديد من حفرته المليئة بالماء . كانت شجرة البرتقال لم تكن في موضعها ، وما عاد (الفتى) الآن إلا قبضة من الزرنيخ اختلطت بالرماد تحت مسطح ثقيل من الزرنيخ اختلطت بالرماد تحت مسطح ثقيل من الأسمنت . الآن حقاً داهمها النعاس . كان كل شيء مختلفاً ، ورائحة زرنيخ نفاذة تنبعث من الدار آذت طاقتي أنفها كما لو كانت صادرة من أغوار صيدلية .

عندئذ فحسب أدركت أن ثلاثة آلاف عام قد انقضت منذ ذلك اليوم الذي راودتها فيه الرغبة في تناول ثمرة البرتقال الأولى .

حوار مع المرآة

استيقظ الرجل الذي كان قد شغل الغرفة من قبل بعد أن أغفى قرير العين ساعات بطولها ضارباً صفحاً عن هموم وقلق الصبيحة ، فألفى الضحى يضرب أطنابه وضجيج المدينة يغمر تماماً هواء الغرفة التي لم توصد نافذتها . لا بد أنه قد فكر -بما أنه حالة مزاجية أخرى لم تهيمن عليه- في الانشغال الغليظ بالموت ، في خوفه الذي ولد مكتمل الخلقة ، وفي قبضه الطين-الصلصالية بالنسبة- التي تستكن يقيناً تحت لسان أخيه . لكن الشمس البهيجة التي أنارت الحديقة جذبت انتباهه نحو حياة أخرى أكثر عادة وقرباً من هذا العالم ، وربما أقل صدقاً من وجوده الداخلي المروع ، اجتذبته نحو حياته كإنسان عادي ، كدابة خاضعة للعنة اليومية ، الأمر الذي جعله يتذكر- دون اعتماد على جهازه العصبي أو كبده المتوتر- الاستحالة التي لا علاج لها للنوم كأحد أبناء البرجوازية . فكر في الألغاز المالية للمكتب ، ويقيناً كانت هنالك مسحة من الرياضيات البورجوازية في الأرقام التي يلتوي بها اللسان وهو ينطقها .

الثامنة والنصف ، يقيناً سأتأخر . مر بأطراف أصابعه على صفحة خده . نقل إليه الجلد الخشن الذي رقشته جذور الشعيرات النابتة الإحساس بالشعر

الخشن خلال قرون الاستشعار الممتدة عبر أصابعه . ثم براحة كفه نصف المفتوح تحسس وجهه المرتبك الملامح بعناية وبالهدوء الوقور الذي يتسم به جراح يعرف جوهر الورم . تقلصات من السطح اللين إلى الأغوار المادة الصلبة للحقيقة ، تلك التي كانت في مناسبات بعينها تجعله يشحب من فرط الاضطراب . هنالك تحت أصابعه -وعقب الأصابع عظمة في مواجهة أخرى- أمسكت وضعيته التشريحية التي يستحيل تغييرها بنظام تركيبي دفين ، بكون ضيق من الأمواج ، من العوالم الأصغر ، التي تمضي به رافعة درعه من اللحم البشري إلى سمت أقل احتمالاً من وضعية عظامه الطبيعية النهائية .

نعم . غاضت رأسه في مواجهة الوسادة في المادة الهشة ، وتهاوى جسمه في استرخاء تناله الأعضاء ، بدا أن للحياة مذاقاً أفقياً ، تداخلاً أفضل مع مبادئها الذاتية . عرف أنه مع بذل الحد الأدنى من الجهد المتمثل في إغماض عينيه فإن المهمة المرهقة المتطاولة التي تنتظره ستشرع في الذوبان في مناخ راح يتجرد من تغقده دونما حلول وسط مع الزمان أو المكان : دونما حاجة إلى تجشم عناء المغامرة الكيميائية -إذا ما وصل الأمر لذلك- التي تشكل جسده عناء التعرض الأدنى لقسط من العرقلة . بل الأمر على العكس ، فعلى هذا النحو ، وعيناه مغمضتان ، فإن ثمة توفيراً مطلقاً في الموارد ، غياباً مطلقاً في الموارد ، غياباً مطلقاً في العناء العضوي ، وبمقدور جسمه حين يغوص في ماء الأحلام أن يتحرك ، يحيا ، يدور حول أشكال أخرى للوجود ، حيث سيكون لعالمه الواقعي ، كضرورة صحيحة ، زخماً في الحركة مماثلاً إن لم يكن أعظم تظل ضرورة الحياة متحققة معه تماماً دون أي تأثير على تكامله البدني . إذ فستكون مهام الحياة مع الكائنات والأشياء أكثر يسراً وإن كان سيتحرك رغ ذلك على النحو نفسه ، الذي يسير به في العالم الحقيقي . ستكون مهـ حلاقة ذقنه ، ركوب الحافلة ، حل المعادلات في المكتب بسيطة وبعيدة عر التعقيد في غمار الحلم ، وستمنحه في النهاية الشعور ذاته بالتحقق .

نعم ، من الأفضل إتيان الأمر على هذا النحو ، على نحو ما يقوم به الآ

متطلعاً في الغرفة التي غمرها الضوء نحو المرآة ، وكما كان حرياً به أن يواصل اتيانه لو أن آلة ثقيلة وحشية وعبثية لم تطح في هذه اللحظة عينها بالمادة الفاترة لحلمه الأول . الآن هوذا عائد إلى العالم التقليدي . اتخذت المشكلة يقيناً سمات أعظم خطورة . ورغم ذلك فإن النظرية الغريبة التي فجرت ينابيع الرقة فيه جذبته إلى مجال للفهم . ومن أعماق جسمه انبعث الشعور بالتواء فمه جانباً في تعبير من المحتم أنه كان ابتسامة لم تفتر أسنانه عنها طوعاً . راح يحدث نفسه : علي أن أحلق ذقني فيما ينبغي أن أكون منكباً على الدفاتر خلال عشرين دقيقة . ثماني دقائق للحمام ، تغدو خمساً إن أسرعت ، سبع لتناول الإفطار ، نقانق عتيقة تثير الشعور بالتعاسة ، متجر مابل للمؤن والأدوات والعقاقير والمشروبات ، وإنه يبدو كصندوق نسيه أحدهم . لقد نسيت اسمه (تعطلت الحافلة يوم الثلاثاء فتأخرت سبع دقائق) بيندورا . لا ، بيلدورا . ولا هذا . نصف ساعة على وجه الإجمال . لم يعد ثمة وقت . لقد نسيت الاسم ، كلمة تضم كل شيء . بيدورا . إنها تبدأ بحرف ب .

تلقى نظرة ضجرة من المرآة وهو يقف أمامها مرتدياً ثوب الحمام مواجهاً حوض الاغتسال بوجه لا يزال النعاس يخالجه ، وشعر لم يمتد إليه مشط ولحية لم تحلق ، نالته رعشة سريعة ذات خيط بارد يمتد وهو يكتشف أخاه الميت ، وقد بعث من جديد في تلك الصورة . الوجه المتعب ذاته ، النظرة التي لا تزال آثار النوم عالقة بها .

بعثت حركة جديدة إلى المرآة بدفق من الضوء أريد له أن يجلب تعبيراً مرحاً ، لكن الارتداد العفوي لذلك الضوء جلب له- على عكس مخططه- تكشيرة غريبة . الماء . انسال الدفق الحار متدفقاً ، وافراً ، وفصلت الموجة الشهباء من البخار الغليظ بينه وبين صقال المرآة . أفلح على هذا النحو منتهزاً فرصة الانقطاع في التواصل في تحقيق توافق بين زمنه والزمن الماثل في صقال المرآة .

تجاوز المشحذة الجلدية ، فملأ صقال المرآة بأذنين مدببتين . أطل عليه عبر المعدن البارد والسحابة التي أخذت الآن في الانقشاع ، الوجه الآخر من جديد وقد جعلته نائماً تلك التعقيدات العضوية وقوانين الرياضيات التي يحاول بها علم الهندسة أن يصوغ على نحو جديد قادر على الصمود . هنالك في مواجهته ارتسم الوجه بنبض ودفق حضوره الخاص وقد تحولا إلى تعبير كان في الوقت ذاته ابتسامة وإطلالة جادة ساخرة مرتسمة على الصقال الرطب الذي تركه تكثف البخار نظيفاً .

ابتسم (فابتسم الوجه) أبرز- لنفسه-لسانه (فأبرز الوجه-للشخص الحقيقي-لسانه) كان لمن في المرآة لسان عجيني أصفر ، قال محدداً المرض من الأعراض :«معدتك مضطربة» (تعبير صامت) صحبته تكشيرة . ابتسم من جديد (ابتسم الوجه مجدداً) لكنه الآن استطاع أن يدرك أن ثمة ضرب من البلاهة ، الاصطناع ، الزيف في الابتسامة التي ردت إليه . مسد شعره (مسد الآخر شعره) بيده اليمنى (والآخر بيده اليسرى) راد الابتسامة الخجول في الحال (ومختفياً) أدهشه سلوكه وقد وقف أمام المرآة مقلباً وجهه كمن به جنة . ورغماً عن ذلك فقد حفظ نفسه بأن الجميع ينصرفون على النحو ذاته أمام المرايا ، وعندئذ تعاظم سخطه مع تيقنه بأنه فيما العالم تعلوه البلاهة فإنه هو الوحيد الذي يبدي توقيراً للفظاظة والابتذال . بلغت الساعة الثامنة والدقيقة السابعة عشرة .

أدرك أن عليه بالإسراع إن أراد تجنب طرده من الوكالة . من تلك الوكالة التي تحولت منذ فترة إلى نقطة انطلاق لجنازته اليومية التي يمضي فيها وحيداً .

أفرز صابون الحلاقة الذي راحت تعمل الفرشاة فيه بالوناً أبيض ضارباً إلى الزرقة اجتذبه من قلب وساوسه . كانت تلك هي اللحظة التي تغلغلت الرغوة فيها بجسده ، خلال شبكة عروقه ، ويسرت أداء جسده كله لوظائفه

. . .هكذا عاد إلى حالته الطبيعية ، فبدا له أكثر مدعاة للارتياح أن يقدح زناد مخه الذي كسته الرغوة بحثاً عن الكلمة التي يريد أن يقارن متجر مابل بها . بيلدورا ، يالمحل مابل البائس! . بالدورا . مؤن أو عقاقير أم كل شيء في وقت واحد : بيندورا .

كان هناك ما يكفي من الرغوة في الوعاء ، لكنه واصل أعمال الفرشاة وقد شاب الانفعال حركته على وجه التقريب . منحه المشهد الطفولي للفقاقيع البهجة الصافية التي يستشعرها صبي تجاوز الطفولة فيما هي تتسرب إلى فؤاده ثقيلة وضارية كخمر رخيصة . كان حرياً بجهد جديد يبذل بحثاً عن المقطع الصوتي الغائب أن يكون كافياً لكي تنبثق الكلمة ناضجة وضارية ، أن تطفو على سطح ذلك الماء الغليظ المضبب لذاكرته الحلقة . ولكن في هذه المرة وكما حدث في المرات الأخرى ما كانت الأجزاء المنفصلة المبعثرة للجهاز الواحد لتلتم معاً لتكتسب الكمال العضوي ، فغدا متأهباً للتخلي عن تلك الكلمة كلية ، بيندورا!

الآن حان وقت للتوقف في غمار ذلك البحث الذي لا جدوى منه ، ذلك أن-معاً رفعا عيونهما فالتقت- أخاه التوأم بدأ بفرشاته الغارقة في رغوة الصابون يغطي ذقنه بتلك البرودة التي تجمع بين اللونين الأبيض والأزرق ، تاركاً يده تتحرك-قلده بتحريك يمناه- بنعومة ودقة إلى أن غطى المنطقة التي مرر الفرشاة عليها بالرغوة . التفت فلاحت له هندسة الأذرع على وجه الساعة وكأنها ترسم في إصرار الحل لمعادلة عذاب جديدة : الثامنة والدقيقة الثامنة عشرة . كانت حركته شديدة البطء ، لذا أمسك الموسى واضعاً نصب عينيه هدفاً يحرص عليه هو الانتهاء سريعاً ، فاستجابت اليد العظمية للموسى لمرونة أصابعه .

قدر أن تلك المهمة ستنتهي في ثلاث دقائق ، فرفع ذراعه الأيمن وذراع الآخر الأيسر (إلى مستوى أذنه اليمنى) (أذن الآخر اليسرى) ملاحظاً في

غمار ذلك أنه ما من شيء يمكن أن يفوق صعوبة حلاقة المرء لذقنه على النحو الذي تجسده الصورة المرتسمة في المرآة . استمد من هذه الملاحظة سلاسل بكاملها من التقديرات المعقدة مستهدفاً التحقق من سرعة الضوء التي أوشكت في الوقت ذاته أن تقوم برحلة الذهاب والعودة بين عينيه وصقال المرآة مفرزة تلك الحركة . ولكن عاشق الفن الكامن في أعماقه تغلب بعد صراع يساوي تقريباً الجذر التربيعي لسرعة الضوء الذي ربما توصل إليه دارس الرياضيات ، وانطلقت أفكار الفنان نحو حركات الموسى التي كانت تكتسي الرغوة مع لمسات الضوء . سريعاً- وقد تصالح عاشق الفن ودارس الرياضيات- مر بحد الموسى على خده الأيمن والخد الأيسر الآخر) ماضياً بها إلى خط انتصاف الشفة ولاحظ مغتبطاً أن الخد الأيسر للصورة بدا نظيفاً وسط حواف الرغوة .

لم يكن قد مسح حد الموسى لينظفها حينما فغمته رائحة دخان مثقلة بالعبير المرير للحم متناهية من المطبخ . استشعر اختلاجة تحت لسانه والانسيال المنهمر خفيف رقيق ملأ حلقه بالطعام النشط للدهن الساخن . أكباد محمرة . أخيراً حدث تغيير في متجر مابل اللعين . بيندورا . ولا تلك الكلمة أيضاً . تداخل للكبد وسط الصلصة في أذنه مع ذكرى انهمار المطر ، الذي لم يكن يرجع إلا إلى صبيحة اليوم ذاته ، ومن ثم فعليه ألا ينسى حذاءه المطاطي ومعطفه الواقي من المطر . كبد في صلصة مرق اللحم . لا موضع للشك في هذا .

من بين حواسه جميعاً لم تكن هناك حاسة جديرة بالارتياب كحاسة الشم ، ولكن إذا ما ضرب صفحاً عن حواسه الخمس وحتى إذا ما كانت هذه الوليمة لا تعدو أن تكون ضرباً من التفاؤل من جانب غدته النخامية ، فإن الحاجة للانتهاء مما بين يديه كانت في هذه اللحظة هي أشد الأمور إلحاحاً على حواسه الخمس . مر بالموسى بدقة ومهارة- ابتسم لها دارس الرياضيات والفنان- إلى الخلف (إلى الأمام بالنسبة للآخر) وإلى الأمام (إلى الخلف)

وحتى زاوية فمه إلى اليمين إلى اليسار فيما كانت يده اليمنى (يد الآ اليسرى) تربت الجلد وتسير على هذا النحو مرور الحافة المعدنية للموسى الأمام (من الخلف بالنسبة للآخر) إلى الخلف (الأمام) وصعوداً (صعوداً) هبوطاً فانتهاء وكلاهما يلهث بعد أن انتهى العمل في الوقت ذاته .

ولكن لدى انتهائه على وجه الدقة ، وحينما كان عاكفاً على القي باللمسات الأخيرة لخده الأيسر بيده اليمنى رأى كوعه منعكساً في صق المرآة . شاهده ضخماً ، غريباً ، مجهولاً ، ولاحظ دهشاً أن ثمة عينين فو الكوع ضخمتين كذلك ومجهولتين أيضاً تبحثان في جنون عن موض الموسى . أحدهم يحاول ذبح أخي . ذراع قوية . دم! الشيء عينه يحدث دو كلما كنت في عجلة من أمري .

تلمس على وجهه الموضع المقابل ، لكن إصبعه كان نظيفاً ، ولم تبلغ لمست سائلاً يفيض . انتفض فجأة ، فلم تكن هناك جروح بجلده ولكنه هنالك ف المرآة كان الدم ينساب هوناً من الآخر . وفي أعماقه غدا الضيق الذي خلق إدراك أن كابوس البارحة سيتكرر حقيقة واقعة من جديد وعياً لما تغض أطراف بعد . ولكن هناك الذقن (وجوه بدرية متماثلة) هذه الشعيرات الممتدة م الخال تحتاج إلى حد الموسى .

ظن أنه قد لاحظ سحابة من غيم القلق فوق التعبير العجول الذي تعكس صورته . أيمكن أن سرعة الضوء بسبب عجلته في حلاقة ذقنه-وعندئذ تولى دارس الرياضة السيطرة على الموقف- قد عجزت عن تغطية المسافة لتسجل الحركات كافة؟ أيمكن أن يكون في غمار عجلته قد سبق صورة المرآة وأنهى العمل سابقاً الصورة بحركة واحدة؟ أم ترى من الممكن- وهنا أفلح الفنان بعد صراع قصير في إزاحة دارس الرياضيات جانباً! أن الصورة قد اكتست حياتها الخاصة ، وقررت- بالحياة في زمان خال من التعقيدات- أن تنتهي من العمل ببطء يفوق موضوعها الخارجي .

فتح صنبور الماء الساخن بادي الانشغال ، أحس بتصاعد البخار الدافئ الغليظ ، فيما ملأ ارتطام الماء بوجهه أذنيه بصوت حلقومي . جعلته خشونة ملمس المنشفة البهيجة الحديثة الكي على جلده يتنفس بالرضا العميق لحيوان وافر الحيوية تلك هي الكلمة :بندورا .

تطلع إلى المنشفة دهشاً ، أغمض عينيه مرتبكاً فيما كان وجه في المرآة يماثل وجهه يتأمله بعينين واسعتين بلهاوين وقد لاح خط أحمر متوهج على صفحة الخد .

فتح عينيه وابتسم (ابتسم الوجه) لم يعد ثمة ما يعنيه . إن متجر مابل هو صندوق بندورا[1] .

فغمت الرائحة الحارة للكبد في صلصة مرق اللحم خياشيمه بمزيد من الإلحاح ، فشعر بالرضا -رضا إيجابي- إذ شرع كلب ضخم يهز ذيله في أغوار روحه .

(١) في الأساطير اليونانية أن الآلهة أرادت أن تشغل البشر عن طموحهم إلى الرقي لمستوى الآلهة تخلقت امرأة فاتنة هي بندورا وبعثت معها بصندوق غامض هدية للبشر ، وما إن فتح الصندوق حتى تسربت منه كل الشرور والأوجاع والأمراض غير أن الصندوق في النهاية كان يضم شيئاً واحداً طيباً هو الأمل .(هـ.م .) .

الثلاثة السائرون نياماً يستشعرون المرارة

مضينا بها إلى هناك ، تركناها مهجورة في أحد أركان الدار . أحدهم حدثنا قبل أن نحضر متعلقاتها- ملابسها التي تصوغ فيها رائحة الخشب المجتث حديثاً وحذائها البالغ الخفة الذي تحتمي به من الوحل- بأنها ستعجز عن اعتياد تلك الحياة الوئيدة الخالية من الأطايب والمباهج والتي لا تجد في رحابها إلا تلك العزلة الضاربة المتطاولة الجاثمة دوماً على كاهلها . أحدهم قال لنا- وقد مر وقت طويل قبل أن يتذكر ذلك- إنها قد حظيت كذلك بطفولة يوماً . لربما لم نصدق ذلك يومها . أما الآن ونحن نراها جالسة في الركن مفزعة العينين وقد وضعت أصبعها على شفتيها ، فلربما تقبلنا حقيقة أن كانت لها طفولة يوماً ، وأنها تمتعت بلمسة شديدة الحساسية لتوقع برودة المطر ، وأن جسمها كان له دوماً ظل جانبي غير متوقع .

صدقنا هذا ، وما يفوقه كثيراً ، في ذلك الأصيل حينما أدركنا أنها مخلوق إنساني تماماً ، إذا ما ضربنا صفحاً عن عالمها السفلي المروع . اكتشفنا الأمر فجأة ، كما لو أن لوحاً زجاجياً قد تحطم في الداخل ، حينما شرعت تند عنها صيحات ملؤها العذاب . بدأت تنادي كلاً منا باسمه متحدثة خلال زخات الدموع إلى أن جلسنا حولها ، وشرعنا نغني ونصفق ، وكأنما ضجيجنا يمكن أن يعيد الزجاج المهشم إلى ما كان عليه . عندئذ فحسب استطعنا أن نصدق أنها

عاشت عمر الطفولة يوماً . بدا الأمر كما لو كانت صيحاتها بشكل ما بمثابة الإلهام . كأنما هذه الصيحات يضمخها عبق شجرة تعود إليها الذاكرة ونهر يتدفق غائراً . عندما نهضت انحنت قليلاً ودون أن تغطي وجهها بميدعتها ، وبغير أن تفزع أنفها وما زالت على انتحابها قالت لنا :

- لم أبتسم أبداً .

خرجنا إلى الفناء ثلاثتنا دون أن ننبس ببنت شفة . ربما ظننا أن أفكاراً مشتركة تجول بخاطرنا . ربما حدثنا أنفسنا بأنه من الأفضل ألا نوقد الأنوار في الدار ، لربما أرادت الانفراد بنفسها ، أن تجلس في الركن المعتم ضافرة الجديلة الأخيرة ، التي بدت وكأنها الشيء الوحيد الذي سيبقى بعد عبورها إلى رحاب ما هو حيواني .

في الخارج ، في الفناء ، جلسنا نمعن التفكير في الأمر ، غارقين في الضباب المليء بالحشرات . لقد فعلنا ذلك مرات عديدة من قبل . لربما قلنا إنا نعكف على القيام بما قمنا به دوماً في كل يوم من أعمارنا .

ومع ذلك كان الأمر مختلفاً في تلك الليلة ، فقد قالت إنها لن تبتسم أبداً ، وكما نحن الذين نعرفها حق المعرفة على يقين من أن الكابوس غدا واقعاً . جلسنا على هيئة مثلث ، رحنا نتصورها هنالك في الداخل وقد تحولت إلى كائن مجرد سلبت طاقته وعجزت عن الإصغاء للساعات التي لا حصر لها التي تقيس الإيقاع المحدد والدقيق الذي كانت تتحول به إلى هباء . رحنا نحدث أنفسنا بصوت واحد :«لو أننا كنا نملك الشجاعة على الأقل لنتمنى أن تلقي حتفها» لكننا أردناها على هذا النحو : قبيحة ، متجمدة كالزجاج ، كإسهام وضيع في عيوننا الخفية .

كنا قد بلغنا الرشد من قبل ، منذ سنوات بعيدة . غير أنها كانت أكبر من في الدار سناً . في تلك الليلة عينها كان بمقدورها أن تكون هنالك جالسة معنا ، تتحسس نبض النجوم ، يحيط بها أبناء يفيضون عافية . كان يمكن أن

تكون سيدة الدار المبجلة لو أنها كانت زوجة مواطن موقر أو خليلة رجل ذي حيثية . لكنها اعتادت الحياة في بعد واحد ، شأن خط مستقيم ، ربما لأن خطاياها أو فضائلها ما كان يمكن أن ترى من منظور جانبي . عرفنا ذلك منذ سنوات طويلة ، بل إننا لم ندهش حينما استيقظنا ذات صباح فألفيناها في الفناء منبطحة على وجهها تمضغ الطين على نحو ضار تمازجه نشوة علوية . عندئذ ابتسمت ، ونظرت إلينا من جديد . كانت قد سقطت من نافذة بالطابق الثاني على صلصال الفناء ، وظلت هناك متصلبة ، ملمومة البدن ، منبطحة على وجهها فوق الطين الرطب ، لكننا علمنا فيما بعد أن الشيء الوحيد الذي أبقته على حاله هو الخوف من المسامات ، خوف طبيعي ينتابها لدى مواجهة الفراغ . رفعناها ممسكين بكتفيها . لم تكن صلبة على نحو ما بدت لنا للوهلة الأولى ، بل الأمر على العكس ، فقد تراخت أعضاؤها ، وانفصلت عن مجال إرادتها ، شأن جثة فاترة لم تبدأ في التصلب بعد .

كانت عيناها مفتوحتين ، وفمها ملوثاً بذلك الطين الذي يتحتم أنه بدا لها في طعم مواد الحنوط حين تحولت بوجهها نحو الشمس ، وبدأ الأمر كما لو كنا قد وضعناها أمام مرآة . تطلعت علينا جميعاً بتعبير كئيب تجرد مما يدل على جنسها أوحى لنا بمدى عمق غيابها . قال لنا أحدهم أنها قد لفّت حقتها ، وفيما بعد ظلت على ابتسامتها مفترة عن تلك البسمة الباردة الهادئة التي ترسمها على شفتيها ليلاً حين تجوب أرجاء الدار يقظى . قالت إنها لم تدر كيف وصلت الى الفناء . قالت إنها تشعر بالدفء تماماً ، وأنها كانت تصغي بصوت صرار ليل صاك قاطع بدا-هكذا قالت- كما لو كان يوشك على تحطيم جدار غرفتها ، وأنها قد عقدت العزم على تذكر صلوات الأحد ملصقة صفحة خدها بالأرض الإسمنتية .

غير أننا كنا نعرف أنها لا تستطيع تذكر أي ترتيلة ، فقد اكتشفنا فيما بعد أنها قد فقدت فهمها للزمن عندما قالت أنها أغفلت ممسكة بقلب الحائط الذي كان صرار الليل يدفعه من الخارج ، وأنها كانت غافية تماماً حينما

أمسكها أحدهم من كتفيها ونحى الجدار جانباً وأرقدها على الأرض ومحياها يصافح الشمس .

أدركنا في تلك الليلة ، ونحن جالسون في الفناء ، أنها لن تبتسم أبداً من جديد . ربما آلمتنا جديتها المجردة من أي تعبير ونحن نتوقع ما سيحدث : أن تحيا عامدة في ركن معتم بالدار . آلمنا ذلك كثيراً ، مثلما شعرنا بالألم في اليوم الذي رأيناها فيه تقتعد الأرض في الركن الذي تقبع فيه الآن ، وسمعناها تقول بأنها لن تجوب أرجاء الدار بعد الآن . في البداية لم يكن بمقدورنا تصديقها ، رأيناها طوال شهور متعاقبة تجوب أرجاء الدار في كل الساعات وقد تصلبت رأسها وتهدل كتفاها دونما توقف . كنا في الليل نسمع ضجيج جسمها الغليظ وهي تتحرك بين بقعتين مظلمتين ، فنتمدد مستيقظين في الفراش مرات عديدة مصغين لسرها المختلس ، ونتبعها على امتداد أرجاء الدار بآذاننا . ذات مرة قالت لنا إنها في الشفافية الصلدة وإنه اخترق سطح الزجاجة ليصل إليها ، لم ندر حقاً ما الذي كانت تحاول إبلاغنا إياه ، لكننا استطعنا جميعاً أن نرى أن ملابسها كانت مبللة وملتصقة بجسدها ، كأنها خرجت لتوها من صهريج المياه . فقررنا دون أن نحاول تفسير هذه الظاهرة التخلص من كل حشرات الدار ، وأن نقضي على كل ما يمكن أن يطاردها بالهواجس .

أمرنا بالحوائط فنظفت ، أمرناهم بأن يجتثوا النباتات النامية في الفناء ، فبدا الأمر وكأننا طهرنا صمت الليل من قليل من النفاية ، لكننا لم نعد نمنعها تتجول ولم نعد نسمعها تتحدث عن صرار الليل إلى أن أقبل ذلك اليوم الذي ظلت فيه بعد الوجبة الأخيرة تنظر إلينا ، وقالت :«سأظل ها هنا ، جالسة على الأرض» فارتعشنا إذ كان بمقدورنا أن نرى أنها قد بدأت تلوح كشيء يحاكي الموت تماماً .

حدث ذلك منذ وقت طويل ، بل لقد اعتبرنا رؤيتها هناك ، جالسة تماماً بعد ، كما لو كانت قد تحللت في عزلتها ، وفقدت صفة الوجود الطبيعية رغم

أنها كانت ماثلة للعيان . ذلك هو السر في أننا نعرف الآن أنها لن تبتسم قط ثانية ، لأنها قالت ذلك بالطريقة اليقينية والمفعمة بالإقناع ذاتها ، التي قالت بها لنا ذات مرة أنها لن تسير مرة أخرى . بدا الأمر كما لو كنا على يقين من أنها ستقول لنا فيما بعد :«لن أرى بعد الآن أبداً» أو ربما :«لن أسمع بعد الآن أبداً» وكنا نعلم أن بها من النبض الإنساني ما يجعلها تمضي في التصميم على تصفية وظائفها الحيوية ، وأنها ستمضي بصورة عضوية في القضاء على نفسها وتصفيةً حاسة بعد الأخرى ، إلى أن نجدها ذات يوم كما لو كانت قد أغفت للمرة الأولى في حياتها . ربما كان هناك المزيد من الوقت قبل أن يقع ذلك . لكننا ثلاثتنا وددنا في جلستنا بالفناء لو سمعنا نحيبها الحاد الذي يحاكي تحطم الزجاج في تلك الليلة على الأقل لتمنحنا توهم أن وليدة . . .طفلة وليدة قد ولدت في الدار ، لكي نصدق أنها قد ولدت في إهاب جديد .

عينا كلب أزرق

عندئذ نظرت إليّ . ظننت أنهـا تنظر إلي للمـرة الأولى . ولكن عندئذ ، دارت وراء المصباح ، ظللت على شعوري بنظرتها الزلقة الدهنية ورائي ، عبر كتفي . أدركت أنني أنا الذي كنت أنظر إليها للمرة الأولى . أشعلت سيجارة ، سحبت نفساً من الدخان القوي الحاد قبل أن أتأرجح بالمقعد موازناً إياه على القائمتين الخلفيتين . عقب ذلك رأيتها هناك ، كما لو كانت تقف إلى جوار المصباح ناظرة إلي كل ليلة . للحظات قصيرة كان كل ما أتيناه هو أن ينظر أحدنا إلى الآخر . تطلعت إليها من المقعد موازناً على إحدى القائمتين الخلفيتين . انتصبت واقفة مادة يداً طويلة هادئة إلى المصباح تنظر إلي . رأيت جفونها مغمورة بالنور شأنها كل ليلة . عندئذ تذكرت الشيء المألوف ، حينما قلت لها :«عينا كلب أزرق» قالت لي دون أن تبعد يدها عن المصباح :«ذلك ، ما لن يقدر لنا أن ننساه قط» غادرت المدار متنهدة :«عينا كلب أزرق . لقد كتبتها في كل مكان» .

رأيتها تمضي إلى مائدة الزينة . راقبتها وهي تتجلى في الصقال الدائري للمرآة ، وهي تنظر إلي الآن في نهاية رحلة ذهاب وإياب للضوء . رأيها تواصل التطلع إلي بعينيها النجلاوين المتقدتين كالجمر ، راحت تنظر إلي فيما كانت

تفتح الصندوق الصغير المغطى بعرق اللؤلؤ الوردي . رأيتها تضع الذرور على أنفها . حينما فرغت من ذلك أغلقت الصندوق ، انتصبت واقفة من جديد ، ومضت نحو المصباح قائلة :«أخشى أن أحدهم يحلم بهذه الغرفة ويكشف النقاب عن أسراري» رفعت فوق اللهب اليد الطويلة المرتجفة ذاتها التي كانت تدفئها قبل الجلوس أمام المرآة . قالت :«لن تشعر بالبرد» قلت لها :«في بعض الأحيان» فقالت لي :«لا بد أنك تحس به الآن» عندئذ فهمت السر في أني لم أستطع البقاء وحدي على المقعد ، فقد كان البرد هو الذي يمنحني اليقين بعزلتي . قلت«الآن أشعر به ، وذلك الأمر غريب فالليلة هادئة ، ربما سقطت الستارة» لم تحر جواباً . شرعت من جديد في التحرك نحو المرآة ، فالتفت من جديد في المقعد مبقياً ظهري نحوها . كنت أعرف دون أن أراها ماذا تصنع . عرفت أنها جالسة أمام المرآة من جديد تنظر إلى كتفي الذي أتيح له الوقت ليصل إلى أعماق المرآة ، ولتقتنصه نظرتها التي أتيح لها كذلك الوصول إلى أعماق المرآة والعودة-قبل أن يتاح لليد الوقت للقيام ببدء دورة ثانية- حتى طليت شفتاها بالحمرة ، من الدورة الأولى ليدها أمام المرآة . رأيت أمامي الحائط الناعم الطلاء الذي كان يحاكي مرآة مطفأة الصقال ، لم يكن بوسعي رؤيتها فيها- وهي تجلس ورائي- وإن كان بمقدوري تخيلها ، حيث من المحتمل أن تكون كأنما علقت المرآة مكان الحائط . قلت لها :«إني أراك» وعلى الجدار رأيت ما كان ، كأنما رفعت عينيها ورأتني وظهري نحوها في المقعد في أعماق المرآة وقد وجهت محياي نحو الحائط . ثم رأيتها تنكس عينها من جديد وتثبتهما دوماً على مشد صدرها دون أن تنبس بكلمة . قلت :«ذلك مستحيل» سألتها عن السبب ، فقالت بعينين هادئتين تستقر نظراتهما مجدداً على مشد صدرها :«لأن وجهك ملتفت إلى الحائط» عندئذ درت ملتفتاً بالمقعد دورة كاملة . كنت قد أطبقت بأسناني على السيجارة . حينما ظللت مواجهاً المرآة عادت إلى المصباح . الآن وضعت يديها مفرودتين فوق اللهب كأنهما جناحا دجاجة باعثة الدفء فيهما ، وقد ألقت أصابعها الظلال على

وجهها . قالت :«أحسب أنني سأصاب بالبرد ، ربما كانت تلك مدينة الجليد» التفتت بوجهها فتحول وجهها من اللون النحاسي في الحمرة ، واكتسى فجأة بالحزن . قالت :«افعل شيئاً لتحل هذا الأمر» . وشرعت في نزع ملابسها قطعة وراء الأخرى بادئة من أعلى بمشد صدرها ، قلت لها :«سألتفت إلى الحائط مجدداً «قالت : «لا . فسوف تراني على أية حال مثلما فعلت حينما كنت تدير ظهرك نحوي» وما إن قالتها حتى غدت عارية تماماً على وجه التقريب واللهب يلعق جلدها البرونزي الوافر . قلت :«أردت دوماً رؤيتك على هذا النحو ، جلد بطنك ترقشه التجاويف العميقة كأنما أوسعت ضرباً» وقبل أن أدرك أن كلماتي قد شابها الارتباك لمرآها عارية تجمدت في موضعها وراحت تدفئ نفسها على استدارة المصباح . قالت :«أحياناً أظن أنني قد خلقت من معدن» لفها الصمت للحظة . اختلف الموقع الذي تحتله يداها فوق اللهب قليلاً عن ذي قبل . قلت :«أحياناً أظن في أحلام أخرى أنك لست إلا تمثالاً برونزياً صغيراً في ركن متحف ما ، وربما هذا هو السر في برودك» قالت :«أحياناً حين أضطجع على قلبي ، أحس أن جسمي يغدو أجوف وأن جلدي كالصحفة ، وعندئذ وفيما الدم يتدفق بالنبض داخلي يبدو الأمر كما لو أن أحدهم يناديني بالطرق على معدتي ، وبوسعي الشعور بصوتي النحاسي في فراشي . إنه يشبه- بم تدعوه؟- معدن مؤلف من صفائح» اقتربت من المصباح . قلت«وددت لو سمعتك» قالت :« لو أننا عثرنا على أحدنا على الآخر في وقت آخر فضع أذنك على ضلوعي حين أرقد على الجانب الأيسر ولسوف تسمعني أردد الصدى . أردت دوماً أن تفعل ذلك ذات مرة» سمعتها أنها طوال سنوات بكاملها لم تصنع شيئاً مختلفاً . كانت قد كرست حياتها للعثور علي في الحياة الواقعية من خلال كلمة السر تلك«عينا كلب أزرق» وكانت تمضي في الطرقات هاتفة بها بصوت عال ، باعتبار أن ذلك هو سبيل إبلاغ الشخص الوحيد الذي يمكن أن يفهمها :

«إنني المرأة التي تدلف إلى أحلامك كل ليلة وتقول لك :«عينا كلب أزرق» وقالت إنها دخلت المطاعم ، وقبل أن تأمر بطعام كانت تقول للنادل : عينا كلب أزرق . لكنهم كانوا ينحنون في إجلال دون أن يتذكروا أنهم قالوا ذلك في أحلامهم : عندئذ كانت تكتب على مناديل المائدة وتحفر بالسكين على طلاء الموائد اللامع :«عينا كلب أزرق» قالت إنها ذات مرة دخلت أحد المتاجر فلاحظت وجود الرائحة ذاتها التي سبق لها أن شمتها في غرفتها ذات ليلة بعد أن راودتها أحلام عني ، حدثت نفسها قائلة :«لا بد أنه قريب من هنا» . ورأت الرقائق الحديثة اللامعة التي تكسو كل شيء في المتجر ، ثم مضت إلى كاتب المتجر وقالت له :«دائماً تراودني الأحلام حول رجل يقول لي :«عينا كلب أزرق» وقالت أن الكاتب نظر إلى عينها وقال لها«في الحق يا سيدتي إن لك عينين من هذا القبيل» فقالت له :«علي أن أجد الرجل الذي قال لي هذه الكلمات ذاتها في أحلامي» فشرع الكاتب في الضحك وانتقل إلى الجانب الآخر من الطاولة . ألح عليها مشهد الرقائق النظيفة وزخم الرائحة ، ففتحت حقيبتها ، وكتبت على الرقائق التي تكسو الطاولة بأحمر الشفاه الخاص بها وبحروف حمراء «عينا كلب أزرق» فعاد الكاتب من حيث كان ، وقال لها :«سيدتي ، لقد لوثت رقائق الطاولة» وقدم لها قطعة قماش مبللة قائلاً :«عليك بتنظيفها!» قالت وهي لا تزال إلى جوار المصباح إنها أمضت الأصيل كله تنظف الرقائق وتقول :«عينا كلب أزرق» إلى أن تجمع الناس عند الباب وقالوا إنها قد جنت .

ظللت بعد أن فرغت من حديثها قابعاً في الركن مقتعداً الكرسي الهزاز . قلت :«في كل يوم أحاول تذكر العبارة التي يمكنني بها العثور عليك ، الآن لا أظن أني سأساندها في الغد ، ومع ذلك فقد قلت دوماً الشيء عينه ، وحينما أستيقظ أكون قد نسيت دائماً الكلمات التي أستطيع بها العثور عليك» قالت :«هذه الكلمات كانت من ابتكارك أنت في اليوك الأول» قلت لها :«لقد ابتكرتها لأنني رأيت عينيك الرماديتين ، لكني لا أتذكر في اليوم التالي قط»

تنفست بعمق إلى جوار المصباح وقد أطبقت قبضتها قائلة :«لو كان بمقدورك على الأقل أن تذكر في أي مدينة كنت أكتب تلك الكلمات» .

تألقت أسنانها المطبقة فوق اللهب . قلت«وددت لو لمستك الآن» . رفعت وجهها الذي كان مطلاً على اللهب . لاحت نظرتها محترقة ، ومحمرة كذلك ، شأنها هي ، مثل يديها . أحسست بأنها رأتني في الركن حيث كنت قابعاً فوق المقعد الهزاز . قالت :«لم تقل لي هذا أبداً» قلت :«ها أنذا أقول لك الآن ، وما أقوله هو الحقيقة» . من الناحية الأخرى للمصباح طلبت السيجارة . كان العقب قد اختفى بين أصبعي إذ نسيت أني أدخن . قالت :«لست أدري أين كنت أكتب تلك الكلمات» قلت لها :«وللسبب عينه الذي لن أتذكرها من أجله غداً» قالت في أسى :«لا ، كل ما في الأمر أني في بعض الأحيان أظن أني حلمت بذلك أيضاً» وقفت وسرت نحو المصباح . كانت تبعد عنه قليلاً ، فواصلت المسير حاملاً السجائر وأعواد الثقاب في يدي التي ما قدر لها أن تمتد وراء المصباح . مددت السيجارة نحوها . أطبقت عليها بشفتيها وانحنت لتبلغ اللهب قبل أن يتاح لي الوقت لإشعال عود ثقاب . قلت :«في مدينة ما من مدن العالم ، وعلى كل الجدران ينبغي أن تظهر هذه الكلمات مكتوبة «عينا كلب أزرق» لو أني أتذكرها غداً إذن لأمكنني العثور عليك . رفعت رأسها كان الجمر قد انتقل من مقلتيها إلى ما بين شفتيها . قالت متذكرة والسيجارة مدلاة نحو ذقنها وإحدى عينيها شبه مغمضة وتنهيدة تخالط صوتها :«عينا كلب أزرق» . ثم امتصت الدخان والسيجارة بين أصابعها وقالت مندهشة :«ثمة شيئ آخر الآن . أشعر بالدفء يتسلل إليّ» قالتها بصوتها الذي داخله الفتور وشرع في الهرب ، وكأنما لم تقلها حقاً ، وكأنما كتبتها فوق رقعة من الورق ، وقربت الرقعة من اللهب فيما كنت أقرأ :«أشعر بالدفء يتسلل إليّ» واصلت الرقعة بين إبهامها وسبابتها مديرة إياها فيما هي تستهلك ، وقرأت لتوي «إليّ» قبل أن تحترق الرقعة تماماً وتتهاوى مجعدة على الأرض متضائلة وقد تحولت إلى رماد خفيف وغبار . قلت :«هذا أفضل ، في بعض الأحيان يخيفني أن أراك على هذا النحو ترتجفين إلى جوار مصباح» .

اعتدنا أن يتراءى أحدنا للآخر سنوات عديدة . في بعض الأحيان وحينما نكون معاً ، يسقط أحدهم ملعقة في الخارج ، نستيقظ . وشيئاً فشيئاً أخذنا ندرك أن صداقتنا أخضعت لأشياء ولأبسط الوقائع . كانت لقاءاتنا تنتهي دوماً على هذا النحو ، بسقوط ملعقة في الصباح الباكر .

الآن ، إلى جوار المصباح كانت تنظر إليّ . تذكرت أنها كانت تنظر إليّ على هذا النحو في الماضي من ذلك الحلم النائي الذي جعلت فيه المقعد يتأرجح على قائمتيه الخلفيتين ، وبقيت وجهاً لوجه مع امرأة غريبة ذات عينين رماديتين . في ذلك الحلم سألتها للمرة الأولى :«من أنت؟» فقالت لي :«لست أتذكر» قلت لها :«لكني أظن أننا التقينا من قبل» فقالت بلا مبالاة :«أحسب أني حلمت بك مرة وبهذه الغرفة ذاتها» فقلت لها :«هذا صحيح ، بدأت أتذكر الآن» قالت :«ما أغرب هذا! لقد التقينا بالتأكيد في أحلام أخرى» .

مجت دخان السيجارة مرتين . كنت لا أزال واقفاً في متوهجة المصباح حينما واصلت النظر إليها فجأة . أمعنت النظر إليها علواً وسفلاً ، وكان البرونز لا يزال يكسوها ، لم يعد معدناً صلداً بارداً وإنما غدا نحاساً أصفر لدناً طيعاً . قلت مرة أخرى :«وددت لو لمستك» قالت :«ستقضي على كل شيء» قلت :«لا أهمية لذلك الآن ، كل ما علينا لكي نلتقي هو أن نقلب الوسادة» . مددت يدي فوق المصباح ، فلم تتحرك . قالت من جديد قبل أن أتمكن من لمسها :«ربما إذا درت نقترب مما وراء المصباح فإننا سنستيقظ خائفين في مكان الله وحده يعلمه في العالم» قلت مصراً :«لا أهمية لذلك» فقالت :«لو أننا قلبنا الوسادة لالتقينا ، ولكن حينما تستيقظ ستكون قد نسيت» . شرعت في التحرك نحو الركن . ظلت في الخلف تدفئ كفيها فوق اللهب ، ولم أكن قد دنوت من المقعد حينما سمعتها تقول ورائي :«حينما أستيقظ في منتصف الليل أظل أتقلب في الفراش وطرف الوسادة يحرق ركبتي وأردد حتى الفجر :«عينا كلب أزرق» .

ظللت موالياً وجهي نحو الحائط . قلت دون أن أنظر إليها :«هوذا الفجر يطل ، حينما دقت الساعة الثانية كنت لا أزال مستيقظاً ، وقد مضى وقت طويل على ذلك» مضيت إلى الباب . حين أمسكت بمقبضه سمعت صوتاً يتردد على النحو ذاته دونما تغيير ، قالت :«لا تفتح ذلك الباب ، فالدهليز متخم بالأحلام العسيرة الاحتمال» سألتها :«من أين لك أن تعرفي؟» قالت لي :«كنت هنالك منذ هنيهة واضطررت للعودة حينما اكتشفت أني راقدة على قلبي» فرجّت الباب قليلاً ، حركته شيئاً ، فجلب لي نسيم واهن بارد رائحة الخضر الطازجة والحقول المنداة . تحدثت من جديد ، فالتفت إلى الوراء ولا زلت أحرك الباب المستقر فوق مفصلات صامتة ، وقلت لها :« أظن أن هناك دهليزاً بالخارج فرائحة الريف تفعم أنفي» قالت لي وقد بدا صوتها نائياً بعض الشيء :«ذلك أمر أعرفه خيراً منك ، وما يحدث هو أن ثمة امرأة في الخارج تحلم بالريف» تقاطع ذراعاها فوق اللهب ، واصلت الحديث :«أرادت تلك المرأة دوماً أن تكون لها دار في الريف ، ولم تستطع قط مغادرة المدينة» تذكرت أني شاهدت تلك المرأة في حلم سابق ، لكني كنت أعلم ، والباب موارب الآن ، أنه سيتعين على خلال نصف ساعة أن أمضي لتناول طعام الإفطار ، قالت :«على أية حال ينبغي أن أغادر هذا المكان لأستيقظ» .

في الخارج ماجت الريح للحظة ، ثم عادت إلى رحاب السكينة ، وتردد تنفس نائم تقلب في الفراش لتوه . سكنت الريح المقبلة من الحقول . وغابت كل الروائح . قلت :«سأتعرفك غداً عن طريق ذلك ، سأتعرفك حينما أشاهد امرأة في الطريق تكتب «عينا كلب أزرق» على الجدران . قالت بابتسامة حزينة–استحالت بالفعل ابتسامة استسلام للمستحيل وللمفارق :«ومع ذلك فلن تتذكر شيئاً خلال النهار» وضعت يديها ثانية فوق المصباح وقد أعتمت ملامحها بفعل سحابة من المرارة :«إنك الرجل الوحيد الذي لا يذكر أي شيء مما تراءى له في الحلم بعد استيقاظه» .

المرأة التي أقبلت في السادسة

انفتح الباب المؤرجح . لم يكن ثمة أحد في هذه الساعة بمطعم جوزيه . كانت الساعة قد دقت السادسة لتوها . إن الزبائن المعتادين لن يشرعوا في التوافد قبل السادسة والنصف . كان زبائنه من المحافظة والانضباط في المواعيد حتى أن الساعة لم تكد تنتهي دقاتها من إعلان السادسة حتى ولجت المطعم امرأة كما اعتادت كل يوم ، وجلست على مقعد عال دون أن تنبس ببنت شفة . كانت تضع سيجارة غير مشتعلة بين شفتيها .

- مرحباً ، يا ملكة!

قالها جوزيه حينما رأى المرأة تجلس . ثم مضى إلى نهاية الطاولة مجففاً السطح المبلل بقطعة جافة من القماش ، كان يأتي الشيء عينه كلما دخل المطعم أحد ، وحتى مع المرأة التي وصل صاحب المطعم الأصهب البدين إلى درجة من الحميمية معها كان يمثل ملهاته اليومية تلك ، التي يبدو فيها رجلاً كادحاً .

قالت :

- فيم ترغبين اليوم؟

قالت المرأة؟

- أرغب أولاً أن أعلمك كيف تكون رجلاً مهذباً .

كانت تجلس في نهاية المقاعد المرتفعة وقد أسندت مرفقيها إلى الطاولة والسيجارة المطفأة بين شفيتها . حينما تحدثت ضغطت على فمها حتى يلحظ جوزيه السيجارة التي لم تشعل .

قال :

- لم ألحظها .

قالت :

- ما زلت بعد لم تتعلم أن تلحظ شيئاً .

ترك قطعة القماش على الطاولة ، مضى إلى الخزانة التي تفوح برائحة القطران والخشب المترب ، وعاد تواً حاملاً أعواد الثقاب . انحنت المرأة لتصل إلى اللهب المتقد بين يدي الرجل المشعرتين الخشنتين ، فرأى جوزيه شعرها الغزير الغارق في دهن لزج رخيص . شاهد كتفها العاري فوق مشد صدرها الذي رقشته الزهور . لمح مطالع صدرها الفستقي اللون حينما رفعت رأسها والسيجارة المشتعلة بين شفتيها .

قال :

- تبدين جميلة الليلة ، يا ملكة!

قالت :

- كف عن ذلك ولا تحسب أن ذلك سيساعدك في دفع حسابك!

قال :

- ليس هذا ما قصدته يا ملكة ، أراهن أن طعام الغذاء لم يكن يناسبك اليوم .

استافت المرأة النفس الأول من الدخان الكثيف ، تقاطع ذراعاها وما زال مرفقاها على الطاولة ، ظلت تحدق في الشارع عبر نافذة المطعم الواسعة .

ارتسم تعبير مكتئب على محياها ، اكتئاب مفعم ضجراً وابتذالاً .

قال جوزيه :

- سأعد لك شرائح لحم طيبة .

قالت :

- لا زلت مفلسة .

قال :

- كنت مفلسة طوال ثلاثة أشهر ، ومع ذلك فإني أعد لك دوماً شيئاً طيباً .

قالت في تجهم ، ولا تزال على تحديقها في الشارع :

- الأمر اليوم مختلف .

قال :

- كل الأيام سواء ، في كل يوم تقول الساعة بأنها السادسة ، وعندئذ تدلفين وتقولين بأنك جائعة مثل كلب يتضور ، وعندئذ أعد لك شيئاً طيباً ، والفارق الوحيد هو أنك اليوم لم تذكري أنك جائعة مثل كلب يتضور ، وإنما قلت إن الأمر اليوم مختلف .

قالت :

- وهذا صحيح .

التفتت متطلعة إليه ، وقد وقف عند الطرف الآخر يفحص ما بداخل الثلاجة . تفحصته ثانيتين أو ثلاثاً ، ثم تطلعت إلى الساعة فوق الخزانة . كانت تشير إلى الدقيقة الثالثة بعد الساعة السادسة .

قالت :

- هذا صحيح ، يا جوزيه ، فاليوم مختلف .

نفثت الدخان ، وواصلت الحديث بكلمات هشة تجردت من الانفعال :

- لم آت اليوم في السادسة ولذلك فاليوم مختلف يا جوزيه!

نظر إلى الساعة .

- قال :

- لأبترن ذراعي إن كانت هذه الساعة متأخرة دقيقة واحدة .

قالت :

- ليس هذا ما قصدته ، يا جوزيه ، فأنا لم آت في السادسة اليوم .

قال :

- لقد دقت السادسة لتوها ، يا ملكة ، وحينما أقبلت كانت دقاتها قد انتهت لتوها .

قالت :

- ثمة ربع الساعة يقول بأني كنت هنا قبل ذلك .

مضى إلى حيث كانت . قرب وجهه الضخم السمين من المرأة فيما جذب أحد جفونه بسبابته .

قال :

- انفخي هنا!

تراجعت المرأة برأسها مستاءة ، فقد كانت جادة ، وقد أخذ الضيق منها فيما أضفت عليها سحابة شجن وإرهاق رقة وحسناً .

- كفى حماقة ، يا جوزيه ، فأنت تعلم أني لم أحتس شراباً منذ ستة شهور .

قال :

- قولي هذا لغيري ، أراهن أنك شربت جالون على الأقل .

قالت :

- تناولت قدحين مع صديق .

قال :

- أوه ، الآن أفهم جلية الأمر .

قالت :

- ليس هناك ما يُفهم ، لقد كنت هنا منذ ربع الساعة .

هز كتفيه .

قال :

- طيب ، إذا كان هذا ما تريدين ، فهناك ربع الساعة يقول بأنك كنت هنا ، في نهاية الأمر أي فارق إن نقصت عشر دقائق أو زادت أخرى؟

قالت :

- تخلق فارقاً ، يا جوزيه!

مرت ذراعيها عبر الطاولة ذات السطح الزجاجي وقد بدا عليها ضياع من لا يبالي . قالت :

- وليس الأمر أني أريد هذا ، وإنما كنت هنا قبل ربع الساعة .

تطلعت إلى الساعة وقالت مستدركة :

- ما الذي أقوله ، كنت هنا قبل ثلثي الساعة .

قال :

- ليكن يا ملكة ، سأمنحك النهار كله والليل الذي يواكبه لأراك سعيدة .

كان جوزيه طوال هذا الوقت كله يتحرك خلف الطاولة مغيراً الأشياء، منتزعاً شيئاً ما من موضعه ليتركه في مكان آخر، كان يتقمص دوره.

كررت قوله:

- أتمنى أن أراك سعيدة.

فجأة توقف والتفت إلى حيث جلست، قال:

- أتعرفين أني أحبك كثيراً!

نظرت إليه ببرود.

- نع . . . م . . .؟ يا له من اكتشاف، يا جوزيه، أتظنني أرضى بك حتى ولو في مقابل مليون بيزو؟

قال:

- لم أقصد هذا، يا ملكة، أكرر أن طعام غدائك لم يكن مما يناسبك.

قالت:

- ليسَ هذا هو السبب فيما قلته.

غدا صوتها أقل تراخياً وهي تضيف.

- لا تستطيع امرأة أن تحتمل وزناً كثقلك حتى ولو في مقابل مليون بيزو.

تضرج وجهه، فأدار ظهره لها، وشرع يزيل الغبار عن الزجاجات فوق الأرفف، وقال دون أن يلتفت برأسه نحوها:

- لا سبيل إلى احتمالك اليوم، يا ملكة، وأعتقد أن خير ما تفعلين هو تناول شريحة اللحم والذهاب إلى الدار لتأوي إلى فراشك.

قالت:

- لست جائعة.

ظلت تحدق في الطريق مراقبة المارة الغارقين في غسق المدينة. ساد المطعم للحظة صمت معتم، سلام لا يعكره إلا تفقد جوزيه للأشياء في الخزانة. فجأة كفت المرأة عن النظر إلى الطريق، وتحدثت بصوت رقيق، ناعم، مختلف.

- أتحبني حقاً، يا بيلو؟

قال في جفاف ودون أن يتطلع إليها:

- أحبك.

قالت:

- رغماً عما قلته لك؟

قال متسائلاً دون أن يتوتر صوته أو يتطلع بها:

- ما الذي قلته؟

قالت:

- هذا الذي قلت عن المليون بيزو.

قال:

- لقد نسيته بالفعل.

تساءلت:

- هل تحبني إذن؟

قال:

- نعم.

ساد صمت قصير. واصل جوزيه تحركه مواجهاً الأرفف دون أن يلتفت للمرأة. نفثت الدخان مرة أخرى. أراحت صدرها على الطاولة، ثم تساءلت

في حذر وخبث، عاصة لسانها قبل أن تفوه بالكلمات، كما لو كانت تتحدث على نحو ما يسير المرء على أطراف أصابعه:

- حتى ولو لم تمضِ إلى الفراش معي؟

عندئذٍ فحسب التفت جوزيه نحوها.

قال:

- حبي لك أعمق من أن أذهب معك إلى الفراش.

مضى إلى حيث كانت. وقف متفحصاً وجهها، وذراعاه القويان مستندان إلى الطاولة أمامها. وراح يحدق في عينيها. قال:

- أحبكِ كثيراً إلى الحد الذي أود معه كل ليلة أن أقتل الرجل الذي يمضي الليلة معك.

بدتا الحيرة على محيا المرأة لأول وهلة، ثم تطلعت إليه باهتمام بتعبير متراوح يجمع بين التعاطف والسخرية. لفتها لحظة صمت قصير مرتبك، ثم ضجت بالضحك.

- الغيرة تتملكك يا جوزيه، يا للتهور، إنها تمسك بخناقك!

تضرج وجه جوزي من جديد في حياء صريح يوشك أن ينقلب خجلاً طاغياً، مثلما يمكن أن يقع لطفل كشف كل أسراره فجأة، قال:

- يبدو أنك لا تفهمين شيئاً هذا الأصيل يا ملكة! وجفف نفسه بالخرقة مضيفاً:

- هذه الحياة السيئة تحيلك إلى وحش كاسر.

غير أنِ المرأة غيرت عندئذٍ التعبير المرتسم على ملامحها.

قالت:

- هكذا إذن.

تطلعت إلى عينيه من جديد. وقد تألقت نظرتها بوهج غريب وخالطها الحيرة والتحدي معاً.

- هكذا تحس بالغيرة.

قال:

- أحسها على نحو ما ولكن ليس بالطريقة التي ظننتها.

فك ياقته وواصل تجفيف عرقه، ماسحاً زورهُ بالخرقة.

تساءلت المرأة:

- هكذا؟

قال:

- الحق أني أحبك كثيراً حتى أني أمقت الحياة التي تعيشينها.

تساءلت!

- ماذا؟

قال:

- مسألة مصاحبتك لرجل مختلف كل يوم.

تساءلت:

- أتقتله حقاً لتمنعه من المضي للفراش معي.

قال:

- لا لمنعه من المضي معك، وإنما أقتله لأنه (مضى) الليلة معك.

قالت:

- الأمر سيان.

وصل الحوار إلى منعطف يثير الانفعال. كانت المرأة تتحدث بصوت ناعم

وثيد مفتون ,ووجهها يكاد يلتصق بوجه الرجل المسالم المتفجر صحة ، وهو يقف بلا حراك ، كما لو سحره ضباب الكلمات .

قال :

- هذا صحيح .

- هكذا .

قالتها المرأة ، ومدت يدها لتلاطف ذراع الرجل الخشن ، وبيدها الأخرى ألقت بعيداً بعقب سيجارتها .

- هكذا فإن بمقدورك قتل رجل .

- من أجل ما حدثتك به نعم .

قالها جوزيه وقد اكتسى صوته بما يوشك أن يكون إصراراً مأساوياً . ضجت المرأة بضحك عصبي توشي السخرية أغواره .

قالت ولا تزال على ضحكها :

- كم أنت فظيع ، يا جوزيه ، كم أنت فظيع! جوزيه يقتل رجلاً! منذ الذي كان يعرف أن وراء الرجل اللحيم البادي التقوى والورع الذي لا يرغمني أبداً على الدفع الذي يطهو لي شريحة لحم كل يوم ويحلو له الحديث معي إلى أن أجد رجلاً ، وراء كل هذا يترصد قاتل . كم أنت فظيع يا جوزيه! إنك تخيفني!

اضطرب جوزيه ، ربما مسه قليل من الحنق . ربما شعر ، حينما بدأت المرأة تضحك ، بأنه تعرض للخديعة والاحتيال .

قال :

- أنت سكرى ، أيتها السخيفة ، امضي ونالي قسطاً من النوم ، فليس لك حتى شهية لتناول الطعام .

لكن المرأة كانت قد كفت عن الضحك ، وعادت إلى الجدية من جديد . بدت غارقة في التفكير وهي تنحني على الطاولة . راحت تراقب الرجل وهو يبتعد ، رأته يفتح الثلاجة ويغلقها من جديد دون أن يتناول منها شيئاً ، ثم شاهدته ينتقل إلى الطرف الآخر من الطاولة . راقبته وهو يلمع الزجاج المتألق مثلما فعل في البداية . عندئذ حدثته من جديد بالصوت الرقيق الذي ندّ عنها حين قالت : (أتحبني حقاً ، يا بيبلو؟) .

قالت :

- جوزيه!

لم يلتفت إليها .

- جوزيه!

قال :

- امضي للدار وارقدي ، وخذي حماماً قبل الذهاب للفراش لعلك تغرقين في النوم .

قالت :

- أتحدث جادة يا جوزيه ، فلست بالسكرى .

قال :

- إذن فقد أصبحت غبية .

قالت :

- تعال هنا ، فلدي ما أحدثك به!

أقبل متعثراً ضائعاً بين السرور والتشكك .

- اقترب!

وقف أمامها مرة أخرى ، انحنت ، أمسكت بشعره ، وإن كان ذلك في رقة ظاهرة .

قالت :

- حدثني بما قلته في البداية!

تساءل جوزيه محاولاً النظر إليها ورأسه ملتفتة بعيداً عنها إذ كانت تمسك به من شعره :

- ماذا تقصدين؟

قالت :

- إنك ستقتل الرجل الذي يمضي إلى الفراش معي .

قال :

- سأقتل من يمضي معك إلى الفراش ، يا ملكة ، هذا حق .

أفلتته .

- في هذه الحالة ستدافع عني إن أنا قتلته . أليس كذلك؟

قالتها متسائلة وبلهجة تحمل رنة التأكيد دافعة رأس جوزيه التي تشبه الخنزير بحركة ملاطفة حيوانية ، فلم يحر رداً ، واكتفى بالابتسام .

قالت :

- أجبني ، يا جوزيه ، أتدافع عني إن قتلته؟

قال :

- ذلك أمر يتعلق بالظروف ، فليس الأمر سهلاً على نحو ما تقولين .

قالت :

- لن تصدق الشرطة أحداً أكثر منك .

ابتسم متباهياً في اغتباط ، فانحنت المرأة نحوه عبر الطاولة .

قالت :

- هذا صحيح ، يا جوزيه ، وإني لعلى استعداد للمراهنة بأنك لم تكذب في حياتك مرة واحدة .

قال :

- لن يفيدك السير في هذا الطريق شيئاً .

قالت :

- سيان عندي ، فرجال الشرطة يعرفونك ، ولسوف يصدقون ما تقول دون أن يطرحوا السؤال عليك مرتين .

شرع جوزيه في الطرق على الطاولة أمامها ، وقد عجز عن الرد ، عادت المرأة إلى التحديق في الشارع من جديد ، ثم تطلعت إلى الساعة وعدلت نغمة صوتها ، كما لو كانت مهتمة بإنهاء الحوار قبل أن يصل أول الزبائن .

تساءلت هل تكذب من أجلي مرة يا جوزيه؟ إني جادة في طلبي .

عندئذ حدق فيها جوزيه مجدداً بحدة وعمق كما لو أن فكرة هائلة قد طرأت على ذهنه ، وراحت تقرعه . فكرة ولجت إحدى أذنيه ، دارت هنالك للحظة ، غامضة ، مضطربة ، ثم خرجت من الأذن الأخرى تاركة خلفها لمحة من فزع .

- فيم تورطت يا ملكة؟

قالها جوزيه متسائلاً . انحنى نحوها وذراعاه مطويان فوق الطاولة . اشتمت المرأة رائحة تنفسه البخراء ، غدا ذلك التنفس عسيراً بسبب ضغط الطاولة على معدته .

تساءل :

- هذا أمر خطير حقاً ، يا ملكة ، فيم تورطت؟

أشاحت المرأة بوجهها .

- لا شيء ، فقد كان حديثي على سبيل المداعبة .

ثم تطلعت إليه :

- أتعلم أنك قد لا تضطر إلى قتل أحد؟

قال مستاءً :

- لم يخطر لي أبداً أن أقتل أحداً .

قالت :

- كلا ، يا رجل ، إنما قصدت أني لا أمضي إلى الفراش مع أحد .

قال :

- أوه! الآن تتحدثين بصراحة ، كنت أقول لنفسي دائماً إنك لست بحاجة إلى التسكع في الطرقات ، أعدك إذا تخليت عن هذا كله بأن أقدم لك مجاناً وبصفة يومية أكبر شريحة لحم لدي .

قالت :

- شكراً ، يا جوزيه ، ولكن ليس هذا هو السبب في قراري ، إنما السبب أني لم يعد بمقدوري المضي مع أحد بعد ذلك إلى الفراش .

قال وقد شرع صبره في النفاد :

- ها أنت تعودين إلى الخلط من جديد .

قالت :

- ليست أخلط الأشياء .

تمطت على المقعد ، فرأى جوزيه نهديها المسطحين البائسين تحت مشد صدرها .

- سأرحل غداً ، وأعدك ألا أعود وأضايقك من جديد ، أعدك بألا أمضي للفراش مع أحد .

تساءل :

- من أي مصدر التقطت هذه الحمى؟

قالت :

- قررت قبل لحظة فحسب ذلك ، منذ لحظة واحد لا غير أدركت أنه عمل وضيع .

أمسك جوزيه بالمنشفة من جديد ، وشرع في تنظيف الزجاج أمامها ، تحدث دون أن ينظر إليها .

قال :

- بالطبع ، فهو علم وضيع على نحو ما تمارسينه ، كان عليك إدراك ذلك منذ وقت طويل .

قالت :

- كنت بسبيلي إلى إدراك ذلك قبل وقت طويل ، لكني اقتنعت منذ قليل فحسب ، أصبح الرجال يثيرون اشمئزازي .

ابتسم جوزيه ، رفع رأسه لينظر إليها ، ولا يزال على ابتسامة ، رآها غارقة في التفكير ، حائرة ، تتحدث مرفوعة الكتفين وهي تدور على المقعد المرتفع وقد ارتسم تعبير صارم على ملامحها ، وعلت خشونة خريفية سابقة لأوانها وجهها .

- ألا تظن أنهم ينبغي أن يطلقوا سراح امرأة تقتل رجلاً لأنها تشعر بعد أن مضت معه إلى الفراش بالاشمئزاز منه ومن جميع من رقدوا معها .

قال متأثراً ، ورنه إشفاق تخالط صوته :

- ليس هذا بالسبب الكافي لقطع كل هذا الشوط .

- وماذا إذا أخبرت المرأة الرجل بأنه يثير اشمئزازها ، فيما هي ترقبه وهو عاكف على ارتداء ملابسه ، لأنها تتذكر أنها ظلت تتدحرج معه طوال الأصيل وتشعر بأنه لا الصابون ولا الإسفنج يمكن أن يزيلا رائحته من جسدها .

قال جوزيه وقد غدا الآن لا مبالياً قليلاً وهو يلمع الطاولة :

- هذا كله يزول ، يا ملكة ، ليس هناك ما يدعو لقتله ، وما عليك إلا أن تتركيه يمضي لشأنه .

لكن المرأة واصلت الحديث ، وصوتها يحاكي تياراً متدفقاً توشي العاطفة حواشيه :

- ولكن ماذا إذا قالت له المرأة أنه يثير اشمئزازها ، فيكفُّ الرجل عن ارتداء ثيابه ، ويجري إليها ويقبلها من جديد هل . . .؟

قال :

- ما من رجل مهذب يفعل هذا .

تساءلت بقلق نافد الصبر :

- وماذا إن فعل؟ ماذا إن لم يكن مهذباً . وفعلها وعندئذ تحس المرأة بأنه يثير تقززها إلى حد أنها كان يمكن أن تلقى حتفها وهي تعلم أن السبيل الوحيد لإنهاء الأمر كله هو أن تغرس سكيناً تحته .

قال :

- هذا مخيف ، من حسن الحظ أن ليس هناك رجل يفعل ما تقولين .

قالت وقد نفد صبرها تماماً الآن :

- طيب ، وماذا إن فعل! افترض أنه أتى ذلك .

قال :

- على أية حال ليس الأمر بهذا السوء .

استمر في تنظيف الطاولة دون أن يغير موضعه وقد تراجع اهتمامه بالحوار .

لطمت المرأة الطاولة بمفاصل أصابعها وتحولت لهجتها إلى التأكيد والتصلب .

قالت :

- أنت همجي يا جوزيه ، لا تفهم شيئاً .

أمسكت كُمَّ ردائه بقوة ، وواصلت الحديث :

- هلم ، قل لي إن على المرأة أن تقتله!

قال جوزيه مصالحاً :

- ليكن ، ربما كان الأمر على نحو ما قلت .

تساءلت المرأة ولا تزال تمسك بكم ردائه :

- أليس هذا دفاعاً عن النفس؟

عندئذ رمقها جوزيه بنظرة لطيفة فاترة .

- تقريباً . .تقريباً .

قالها وغمز لها في تعبير يحمل التفهم الودي وفي الوقت نفسه نوعاً مخيفاً من الحل الوسط القائم على التواطؤ . لكن المرأة لم تكن هازلة ، فأطلقت كم ردائه .

تساءلت :

- هل تكذب مرة للدفاع عن المرأة التي صنعت ذلك؟

قال :

- هذا يتوقف على أمور عديدة .

تساءلت :

- علام يتوقف؟

قال :

- يتوقف على المرأة .

قالت :

- افترض أنها امرأة تحبها حباً جماً ، ليس الأمر أن ترقد معها ، ولكن كما تقول أنت ، تحبها كثيراً .

قال جوزيه متراخياً ، ضجراً .

- ليكن ، يا ملكة ، أي شيء تقولينه .

كان قد ابتعد من جديد ، وراح يتطلع إلى الساعة ، فرأى أنها تقترب من السادسة والنصف ، حدث نفسه بأن المطعم سيغص خلال دقائق قلائل بالناس ، وربما كان ذلك هو السبب في أنه شرع في تلميع الزجاج بمزيد من الهمة ناظراً إلى الطريق عبر النافذة ، ظلت المرأة جالسة على مقعدها المرتفع صامتة ، غارقة في أفكارها ، ترقب تحركات الرجل وقد بدا عليها حزن يكس النفوس . راحت ترقبه مثلما قد يطل مصباح يوشك أن ينطفئ على رجل فجأة ، ودون أن ينعكس ذلك عليها ، تحدثت من جديد بصوت الخن المداهن :

- جوزيه!

نظر إليها الرجل برقة حزينة مثلما بقرة تنظر إلى وليدها . لم ينظر إليه ليسمعَ ما تقول ، وإنما لمجرد النظر ، ليعرف أنها هناك ، في انتظار نظرة لا تفتة إلى سبب يجعلها نظرة حماية أو تضامن .

قالت :

- قلت لك أني راحلة غداً ولم تقل شيئاً .

- نعم ، لم تحدثيني إلى أين تمضين .

قالت :

- بعيداً ، إلى حيث لا يوجد رجال يرغبون في مضاجعة أحد .

ابتسم جوزيه مُجدداً .

تساءل كما لو قد أدرك نبض الحياة وقد تغير التعبير المرتسم على ملامحه :

- أترحلين حقاً؟

قالت :

- هذا متوقف عليك ، فإذا كنت تعرف ما يكفي لتقول في أي وقت وصلت إلى هنا فسأرحل غداً ولن أعود إلى هذا أبداً . أيعجبك هذا؟

أومأ جوزيه بقوة موافقاً ، مبتسماً ، جازماً ، مالت المرأة نحوه .

- لئن عدت إلى هنا يوماً فسأشعر بالغيرة حينما أجد امرأة أخرى تحادثك في مثل هذا الوقت جالسة على هذا المقعد .

قال :

- إذا عدت فعليك أن تحضري شيئاً هدية لي .

قالت :

- أعدك بأن أبحث في كل مكان عن الدب المستأنس وأن أحضره لك .

ابتسم جوزيه ، ولوح بالمنشفة في الفراغ الذي يفصلهما ، كما لو كان ينظف لوح زجاج خفي . فابتسمت المرأة بدورها وقد ارتسم على ملامحها تعبير يحمل المودة والتدليل الآن . عندئذ مضى الرجل مبتعداً وهو يواصل تلميع الزجاج حتى الطرف الآخر من الطاولة .

قال جوزيه دون أن ينظر إليها :

- ماذا إذن؟

قالت :

- أحقاً ستقول لمن يسألك أنني وصلت إلى هناك في السادسة إلا الربع .

- لم؟

قالها جوزيه ولا زال مشيحاً بناظريه عنها كأنما لم يسمعها .

قالت :

- لا أهمية لذلك ، المهم هو أن تفعل هذا .

عندئذٍ رأى جوزيه أول الزبائن يلج المطعم عبر الباب المؤرجح ، ويمضي إلى مائدة جانبية . تطلع إلى الساعة فألفاها تشير إلى السادسة والنصف تماماً .

قال على نحو باتر :

- ليكن ، يا ملكة ، كل ما تقولين ، فدوماً ألبي ما تريدين .

قالت :

- طيب ، عليك إذن البدء في طهي شريحة لحم لي!

مضى إلى الثلاجة ، التقط صحفة عليها قطعة لحم ، وتركه على المنضدة ثم أشعل الموقد .

قال :

- سأطهو لك شريحة وداع طيبة ، يا ملكة!

قالت :

- شكراً ، يا بيبلو!

عادت إلى رحاب أفكارها فجأة ، كما لو كانت قد غرقت في عالم سفلي

غريب تسكنه أشباح مجهولة يغمرها الوحل . لم تستطع عبر الطاولة سماع الصوت الصادر عن اللحم النيء مع تساقط جزيئاته على الدهن المتقد . ولم تسمع عقب ذلك النشيش الجاف فيما كان جوزيه يقلب اللحم في المقلاة على الوجه الآخر ورائحة اللحم المقلو تملأ هواء المطعم . ظلت على هذا النحو غارقة في أفكارها إلى أن رفعت رأسها من جديد طارفة بجفونها ، كما لو كانت عائدة من رحاب موت مؤقت . ثم رأت الرجل الواقف إلى جوار الموقد وقد لفته النار المرنحة المتصاعدة في سناها .

- بيبلو!

- ماذا؟

تساءلت :

- فيم تفكر؟

قال :

- أتساءل عما إذا كنت ستستطيعين العثور على الدب الصغير المستأنس في مكان ما .

قالت :

- بالطبع أستطيع ، لكن ما أريده هو أن تعطيني كل ما طلبته كهدية وداع .

أطل عليها من فوق الموقد .

قال :

- كم مرة يتعين عليّ أن أقول لك ذلك؟ أتريدين شيئاً إلى جوار أفضل شريحة لحم عندي؟

قالت :

- أجل .

تساءلت :

- ما هو؟

- أريد ربع ساعة أخرى .

تراجع جوزي ونظر إلى الساعة ، ثم نظر إلى الزبون الذي كان لا يزال صامتاً ينتظر في الركن ، ثم تطلع في النهاية نحو اللحم المقلو في المقلاة عندئذ فحسب تحدث .

قال :

- حقاً ، لست أفهم يا ملكة!

قالت :

- لا تكن أحمق ، يا جوزيه ، ما عليك إلا أن تتذكر أني كنت هنا منذ الخامسة والنصف .

أحدهم كان يعبث بهذه الزهور

بما أن اليوم هو الأحد ، وبما أن السماء قد أقلعت ، فإني أظن أنني سأمضي بباقة من الورود إلى قبري ، وورود حمراء وبيضاء ، من النوع الذي تغرسه لتجميل المذابح والأكاليل . كان الشتاء الغلاب المكفهر الذي دفعني إلى تذكر الهضبة التي يسلم أبناء البلدة موتاهم إلى جوفها قد وشى الصباح بالحزن . إنها مكان أجرد لا تتمايل فيه شجرة واحدة . لا تكتسحه إلا بقايا البقايا من العناية الإلهية التي تعود إلى رحابة بعد أن تمضي الريح لطيتها ، أما الآن وقد أقلعت السماء ويحتمل أن تكون شمس الظهيرة قد جففت المنحدر فينبغي أن أكون قادراً على الوصول إلى المقبرة حيث يرتاح جثمان ولدي وقد اختلطت الآن ملامحه وتناثر وسط القواقع والجذور .

إنها تعكف الآن على قديسيها . ظلت غائبة الذهن منذ كففت عن التحرك في الغرفة حينما أخفقت في المحاولة الأولى للوصول إلى المذبح والتقاط أشد الورود نضارة وأكثرها بريقاً ، ربما كان بوسعي القيام بهذا اليوم . ولكن المصباح الصغير غاب نوره . فنهضت ، وقد أفاقت من نشوتها الذاهلة ، نظرت إلى الركن حيث يوجد المقعد . من المحقق أنها حدثت نفسها قائلة : (إنها الريح مرة أخرى) لأن شيئاً أصدر صريراً إلى جوار المذبح واهتزت الغرفة للحظة كأنما تغير مستوى الذكريات القابعة فيها منذ عهد بعيد للحظة . عندئذ أدركت أنه سيتعين علي الانتظار إلى أن تغادر الغرفة لحظة وتمضي إلى الغرفة

المجاورة لتغفو قيلولة الأحد المنضبطة العصية التغيير . ربما أستطيع عندئذ الانطلاق بالورود والعودة قبل رجوعها إلى هذه الغرفة لتمكث محدقة في المقعد .

كان الأحد الماضي أكثر صعوبة ، فقد اضطررت لقضاء حوالي ساعتين قبل أن تغيب في نشوتها الذاهلة . بدت قلقة ، مشغولة البال كأنما يعذبها اليقين بأن عزلتها في الدار قد أصبحت فجأة أقل حدة . جالت في الغرفة عدة مرات حاملة باقة الورود قبل أن تتركها على المذبح ، ثم مضت إلى الدهليز ، انعطفت ، ودلفت إلى الغرفة الأخرى . أدركت أنها تبحث عن المصباح . وفيما بعد ، حين مرت قرب الباب ثانية ورأيتها في الضوء المنبعث من القاعة بسترتها الصغيرة القاتمة وجواربها الوردية ، بدا لي الآن أنها لا تزال الفتاة التي انحنت فوق فراشي قبل أربعين عاماً في هذه الغرفة ذاتها ، وقالت : (أما وقد وضعوا أعواد الأسنان فإن عينيك تبدوان مفتوحتين ومتحجرتين) . كانت كذي قبل تماماً كأنما لم يتصرم الزمن منذ أصيل أغسطس النائي الذي مضت فيه النسوة بها إلى الغرفة وأرينها الجثة وقلن لها : (ابكي ، فقد كان بمثابة أخ لك) فاستندت إلى الجدار باكية منصاعة لما قيل لها ولا يزال المطر يبللها .

على امتداد ثلاثة أو أربعة أيام آحاد حتى الآن عكفت على محاولة الوصول إلى حيث وضعت الورود . لكنها كانت تغطي أمام المذبح ، ترقب الورود في كد يشوبه فزع لم أعهده فيها طوال الأعوام العشرين التي عاشتها في الدار . حين ذهبت يوم الأحد الماضي لتجلب المصباح ، أفلحت في تجميع باقة من أفضل الورود ، لم يسبق لي في أي لحظة أن كنت قريباً على هذا النحو من تحقيق رغباتي . ولكن فيما كنت أستعد للعودة إلى المقعد سمعت خطواتها في الدهليز مرة أخرى ، فسارعت بإعادة ترتيب الزهور ، وعندئذٍ رأيتها تلوح عند الباب رافعة المصباح عالياً .

كانت ترتدي سترتها الصغيرة القاتمة وسراويلها الحمراء الوردية ، ولكن

استثارة أقرب إلى نوم الإلهام كانت تغمر محياها . لم يبد عليها أنها المرأة التي ظلت طوال عشرين عاماً تغرس أشجار الورود في الحديقة ، وإنما لاحت الطفلة ذاتها التي جاءوا بها في ذلك الأصيل من شهر أغسطس لتبدل ملابسها والتي عادت الآن حاملة المصباح ، وقد ترهلت ، وأوغلت في العمر بعد أربعين عاماً .

كانت لا تزال على حذائي كتلة الطين التي علته في ذلك الأصيل على الرغم من أنه ترك ليجف إلى جوار الموقد النحاسي أربعين عاماً . ذات يوم مضيت لالتقاطه . كان ذلك بعد أن أوصدوا الأبواب وانتزعوا الخبز وعسلوج نبات الصبر من المدخل ، ومضوا بالأثاث كله عدا المقعد القابع في الركن الذي ظللت أقتعده طوال هذا الوقت . كنت أعرف أن الحذاء قد وضع ليجف ، ولم يتذكروه حينما هجروا الدار ، ولهذا مضيت لجلبه .

عادت بعد سنوات طوال . كان الوقت الذي انقضى من الطول حتى أن رائحة المسك اختلطت في الغرفة برائحة التراب وبالأنفاس الجافة الواثبة الصادرة عن الحشرات . وحيداً كنت في الدار ، أجلس في الركن منتظراً . وقد تعلمت أن أتبين صوت الخشب المهترىء وتذبذب الهواء إذ يغدو عتيقاً في المخادع الموصدة . كان ذلك حين أقبلت . وقفت بالباب ممسكة بحقيبة في يدها . معتمرة حقيبة خضراء ، ومرتدية السترة القطنية الصغيرة ذاتها التي لم تنزعها منذ ذلك الوقت . كانت لا تزال في مقتبل العمر ، لم تبدأ في الترهل بعد ، ولم يتورم كاحلاها تحت جواربها على نحو ما هما الآن . كان الغبار ونسيج العنكبوت يكسواني حينما فتحت الباب ، وفي مكان ما من الغرفة صمت صرار الليل الذي كان يصدر صريره طوال عشرين عاماً . ولكن رغماً عن ذلك ، رغماً عن خيوط العنكبوت والغبار والتردد المفاجئ الذي حل بصرار الليل وبالعهد الجديد للوصول الحديث العهد ، فقد تعرفت فيها الفتاة التي مضت معي في أصيل أغسطس العاصف ذاك لجمع الأعشاش في

الإسطبل . ومثلما كانت تماماً ، واقفة بالباب حاملة الحقيبة في يدها ومعتمرة حقيبتها الخضراء بدت كما لو كانت في سبيلها إلى الصراخ فجأة ، إلى أن تقول الشيء عينه الذي قالته حينما وجدوني ملقى على ظهري في الإسطبل المغطى بالقش ، ولا زلت ممسكاً بسور الدرج المحطم . حينما فتحت الباب على سعته فرقعت المفصلات . وتهاوى التراب من السقف كتلاً كما لو كان أحدهم قد شرع يقرع السقف بمطرقة ، ثم لاذت بالصمت عند العتبة ومقبلة على الغرفة وبصوت من يدعو شخصاً نائماً قالت : (أيها الفتى! أيها الفتى!) وظللت في مقعدي متصلباً ، ممدد القدمين .

ظننت أنها أقبلت فحسب لترى الغرفة ، لكنها واصلت سكنى الدار ، تركت الهواء يلعب في الغرفة ، وبدا الأمر كما لو أنها فتحت حقيبتها ، ففاحت رائحة مسكها العتيقة منها . حمل الآخرون الأثاث ، ومضوا بالثياب في حقائب ضخمة . وبعد عشرين عاماً عادت بها من جديد ، فأودعتها مكانها وأعادت بناء المذبح الصغير تماماً على نحو ما كان من قبل . كان وجودها وحده كافياً لإعادة ما دمره جهد الزمان الذي لا تمحى آثاره . ومنذ ذلك الحين كانت تتناول طعامها وترقد في الغرفة تحدث القديسين صامتة ، وفي الأصائل تجلس على المقعد الهزاز إلى جوار الباب وترتق الثياب ، وحينما يأتي أحدهم لابتياع باقة من الورود تضع النقود في طرف منديلها الذي تربطه بحزامها ودون أن تتغير لهجتها تقول :

– خذ الورود من الجانب الأيمن ، فالورود على الجانب الأيسر للقديسين .

على هذا النحو ظلت عشرين عاماً قابعة في المقعد الهزاز ترتق ملابسها ، تتأرجح في المقعد ، ناظرة إلى المقعد الآخر كما لو كانت لا تعنى الآن بالفتى الذي شاركها أصائل طفولتها وإنما بالحفيد الذي كان جالساً هنالك منذ كانت جدته في الخامسة من عمرها .

من المحتمل أن أستطيع الآن ، حين تحني رأسها مجدداً ، أن أصل إلى

الورود . وإذا أفلحت في القيام بذلك فسوف أمضي إلى الهضبة وأضعها فوق القبر وأعود مجدداً إلى مقعدي لأنتظر مقدم اليوم الذي لن تعود فيه إلى الغرفة وتتوقف الأصوات جميعاً في كل الغرف .

في ذلك اليوم سيطرأ تغيير على هذا كله ، إذ سيتعين عليّ أن أغادر الدار من جديد لأبلغ أحدهم بأن بائعة الورود ، المرأة التي تقطن الدار المتداعية تحتاج إلى أربعة رجال ليمضوا بها إلى هضبة الموتى ، حينئذ سأغدو وحيداً إلى الأبد في الغرفة . لكنها من ناحية أخرى ستحس بالغبطة ، لأنها ستعلم في ذلك اليوم أن الريح الخفية لم تكن هي التي تجيء إلى مذبحها في كل يوم من أيام الآحاد وتعبث بالزهور .

ليلة طيور الكروان

كنا نجلس ثلاثتنا ملتفين حول المائدة حينما وضع أحدهم عمله معدنية في ثقب الماكينة ، فانبعث نغم الأسطوانة التي كانت تدور طوال الليل مرة أخرى . حدث باقي الأمر بسرعة خاطفة على نحو لم يبق معه مجال أمامنا للتفكير ، وقع قبل أن نستطيع تذكر أين كنا ، قبل أن نستطيع استعادة شعورنا بالمكان . مد أحدنا يده فوق النضد متلمساً (لم يكن بمقدورنا رؤية اليد . وإنما سمعناها) ارتطم بكوب زجاجي ، ثم تجمد ويداه كلتاهما على السطح الصلب . تطلعنا ثلاثتنا أحدنا إلى الآخر ، فألفينا أنفسنا هنالك ، في مفاصل الأصابع الثلاثين المكومة على النضد . قال أحدنا :

– هيا بنا!

نهضنا واقفين كأننا لم يحدث شيء . لم يكن قد أتيح لنا وقت للشعور بالضيق .

سمعنا فيما كنا نجتاز الدهليز الموسيقى القريبة تدور مطلة علينا . شممنا رائحة النسوة الحزينات جالسات ينتظرن . شعرنا بالخواء المتطاول للقاعة أمامنا فيما كنا نمضي نحو الباب قبل أن تهب الرائحة الأخرى لتلقانا ، الرائحة المقيتة الصادرة عن المرأة الجالسة إلى جوار الباب . قلنا :

– إننا راحلون .

لم تحر المرأة رداً . سمعنا قرقعة مقعد هزاز فيما هي تنهض واقفة . تناهى إلينا وقع أقدام على الألواح السائبة وصوت عودة المرأة من جديد حينما قرقعت المفصلات مرة أخرى ، وأغلق الباب خلفنا .

تلفتنا ، هنالك مباشرة ، وراءنا ، هبت لفحة هواء شرسة قاطعة نابعة من فجر خفي ، وقال صوت :

- ابتعدوا! لقد ضقت بها ذرعاً .

تراجعنا . تحدث الصوت ثانية :

- لا زلتم بإزاء الباب .

عندئذ فحسب ، وحينما تحركنا إلى كل الجوانب ، وألفينا الصوت في كل مكان ، قلنا :

- لا نستطيع الخروج من هنا ، فقد نقرت طيور الكروان عيوننا .

ثم سمعنا أصواتاً عديدة تفتح . ترك أحدنا أيدي الآخرين ، وسمعناه يترنح في الظلام مرتطماً بالأشياء التي تحيطنا . تحدث من موضع ما في الظلام .

قال :

- لا بد أننا قريبون ، فهنا تفوح رائحة الصناديق .

أحسسنا بتواصل يديه معنا من جديد . استندنا إلى الحائط ، وعندئذ مر بنا صوت آخر ، وإن كان في الاتجاه المضاد .

قال أحدنا .

- ربما تكون توابيت .

قال من جر نفسه إلى الركن وراح يلهث الآن وإلى جوارنا :

- إنها صناديق ، فمنذ حداثتي كان بمقدوري أن أميز رائحة الثياب المخزونة .

عندئذ تحركنا في ذلك الاتجاه . كانت الأرض ناعمة لينة ، تراباً طيباً سارت عليه الأقدام . مد أحدهم يداً ، فشعرنا بالتماس مع جلد متطاول يفيض حياة ، ولكنا لم نعد نشعر بالحائط إزاءنا .

قلنا :

- هذه امرأة .

قال الآخر ، ذلك الذي تحدث عن الصناديق :

- أحسب أنها غارقة في النوم .

اهتز الجسد تحت أيدينا ، ارتعد ، أحسسنا به ينزلق مبتعداً ، لا على نحو ما يحدث حين يبتعد عن متناول أيدينا ، وإنما كما لو لم يعد له وجود . ومع ذلك فقد سمعنا صوتها بعد لحظة ظللنا فيها متصلبين دون حراك وقد أسند كل منا كتف الآخر .

قالت :

- من هناك؟

رددنا دون أن نتحرك :

- نحن .

تناهى إلينا صوت حركة الفراش ، القرقعة وحركة الأقدام تتلمس النعلين في الظلام . ثم تصورنا المرأة . الجالسة تتطلع إلينا ولما تستيقظ تماماًبعد .

تساءلت :

- ماذا تصنعون هنا؟

ورددنا :

- لسنا ندري . لقد نقرت طيور الكروان عيوننا .

قال الصوت بأنها سمعت شيئاً عن ذلك . وإن الصحف قالت أن ثلاثة رجال كانوا عاكفين على الشراب في فناء يضم خمسة أو ستة من طيور الكروان ، سبعة منها ، وشرع أحد الرجال يصدح مثل كروان مقلداً إياها .

قالت :

– أسوأ ما في الأمر أنه كان متأخراً عن موعدها بساعة ، وعندئذ قفزت الطيور على المائدة ، ونقرت عيونهم .

قالت إن ذلك هو ما قالته الصحف ولكن أحداً لم يصدقها ، فقلنا :

– لو أن الناس ذهبوا إلى هناك لرأوا طيور الكروان .

وقالت المرأة :

– لقد ذهبوا . كان الفناء مزدحماً بالناس في اليوم التالي لكن المرأة كانت قد مضت بطيور الكروان إلى مكان آخر .

حينما التفتنا حولنا كانت المرأة قد توقفت عن الحديث ، تلمسنا الحائط من جديد ، عثرنا عليه بمجرد الالتفات . كان هناك دائماً حولنا محدقاً بنا . مر أخرى ترك واحد منا أيدينا . سمعناه يزحف من جديد ، متشمماً الأرض قائلاً :

– لست أدري الآن أين الصناديق . أظننا في مكان آخر الآن .

قلنا :

– تعال هنا ، ثمة أحدهم إلى جوازنا .

سمعناه يدنو . سمعناه ينتصب واقفاً إلى جوارنا وتنفسه الدافئ يلطم مر جديد وجوهنا .

قلنا له :

– إمض من هنا ، فثمة من يقف هنالك .

من الحتم أنه قد مضى ، يقيناً أنه تحرك نحو المكان الذي أشرنا إليه ، لأنه عاد بعد لحظة ليقول لنا :

– أحسبه صبياً .

قلنا له :

– رائع . سله إن كان يعرفنا .

طرح السؤال . سمعنا الصوت اللامبالي والبسيط للصبي الذي قال :

– نعم ، أعرفكم ، إنكم الرجال الثلاثة الذين نقرت طيور الكروان عيونهم .

ثم تحدث صوت ناضج ، صوت امرأة تناهى وكأنما من وراء باب موصد قائلاً :

– ها أنتذا تحادث نفسك مرة أخرى .

وقال صوت الصبي دون مبالاة .

– لا . فالرجال الذين نقرت طيور الكروان عيونهم أقبلوا من جديد .

قالت :

– لست أدري أين يقطنون .

قال الصوت الناضج .

– لا تكن وضيعاً! فالجميع يعرف أين يقطنون منذ الليلة التي نقرت فيها طيور الكروان عيونهم .

ثم أضافت بنغمة مختلفة وكأنما هي تحدثنا :

– ما جرى هو أنه ما من أحد يرغب في تصديق الأمر ، ويقولون إنه خبر ملفق اخترعته الصحف لزيادة توزيعها . فلم يقدر أحد أن يشاهد طيور الكروان .

قال :

- لكن أحداً لن يصدقني إن مضيت بهم في الطريق :

لم نتحرك . لبثنا جامدين مستندين إلى الجدار نصغي لها . قالت :

- إن رغب هذا الفتى في اصطحابكم سيكون الأمر مختلفاً ، فلن يكترث أحد كثيراً بما يقوله صبي .

قاطعها صوت الصبي .

- إذا مضيت بهم إلى الشارع ، وقلت إنهم الرجال الذين نقرت طيور الكروان عيونهم فسيقذفني الصبية بالأحجار . الجميع في الشارع يقول إن ذلك لا يمكن أن يكون قد حدث .

سادت لحظة صمت . ثم أغلق الباب من جديد ، وتحدث الصبي قائلاً :

- فضلاً عن ذلك فإني أطالع الآن «تيري والقراصنة» .

همس أحدهم في أذننا قائلاً :

- سأتولى إقناعه .

زحف إلى مصدر الصوت .

قال :

- إني أحب هذه الرواية ، على الأقل حدثنا بما فعل تيري هذا الأسبوع .

حدثنا أنفسنا بأنه يحاول كسب ثقته ، لكن الصبي قال :

- لا يثير ذلك اهتمامي . فكل ما أحبه هو الألوان .

قلنا :

- تيري يواجه المتاهة .

قال الصبي :

- كان ذلك يوم الجمعة . أما اليوم فهو الأحد ، وما أحبه هو الألوان .

قالها بصوت فاتر ، خال من العاطفة ، مترع باللامبالاة .

حينما عاد الآخر قلنا :

- لقد ضللنا الطريق ثلاثة أيام تقريباً ، ولم نحظ بدقيقة من الراحة .

قال واحد :

- ليكن ، دعونا نرتاح لحظة ، ولكن دون أن يترك أحدنا يد الآخرين .

جلسنا ، شرعت شمس خفية تبعث الدفء في كواهلنا . لكن وجود الشمس ذاته لم يثر اهتمامنا . شعرنا بها هنالك ، في كل مكان بعد أن فقدنا تماماًحسّنا بالزمان والمكان والاتجاه مرت أصوات عديدة .

قلنا :

- لقد نقرت طيور الكروان عيوننا .

تبددت الأصوات . واصلنا الجلوس على هذا النحو جنباً إلى جنب منتظرين في غمار مرور الأصوات ذاك ، في غمار مرور الصور ذاك بانتظار رائحة أو صوت معروف لنا يمر بنا . علت الشمس هاماتنا وما تزال تبعث الدفء فينا . ثم قال أحدنا :

لنمض نحو الحائط مرة أخرى!

قال الآخرون ولا زالوا على سكونهم ورؤوسهم مرفوعة نحو الضوء الخفي :

- ليس الآن . دعونا ننتظر إلى أن تحرق الشمس وجوهنا! .